الفصل الرابع

أناكلت الثاني
وأبيلارد
وبرنارد أسقف كليرفو

كان لبطرس ليونيس تسعة أبناء لم يَقُم واحد منهم بدور أعظم من دور بطرس الذي قُدر له أن يصبح البابا أناكلت الثاني، ولقد تدرب بطرس هذا تدريباً منتظماً ومبرمجاً على القيام بمهام منصبه القادم، منذ نعومة أظفاره، أما بالنسبة لمظهره فقد كان شكله بيرليونياً صرفاً (ذكرت عدة تقارير معاصرة له أن ملامح وجهه وأساريره كانت ملامح يهودية)، ولكن عاداته وسلوكه كانت أشبه بنبيل روماني من نبلاء القرن الثاني عشر، فهو ابن عصره، وامتاز بحضور البديهة وسعة الإطلاع، وتفتح الذهن، مع ميول فلسفية عقلانية.

وما دام الأمر كذلك فلا عجب أن نرى هذا الرجل ينجذب إلى بطرس أبيلارد، ذاك الأستاذ الفرنسي المولع بالجدل والمناظرة، والذي كان يُعلم في كلية القديسة جنيفيف في باريس، وكانت قاعة محاضراته تغص على رحبها بالطلاب الآتين من فرنسا، ومن الأقطار المجاورة، والذين أصغوا بشغف وانتباه لذلك الرجل، الذي كان يمثل وجدان عصره، ويتحف مستمعيه ليس بتحريك نسمة من نسمات الحياة فيهم فحسب، بل بعاصفة قوية أكيدة من الهواء الطلق تهب على تلك الصفوف المدرسية التي طالما عاشت راكدة بسماعها الآراء التقليدية المألوفة، وعلم اللاهوت المبتذل، ويسجل المؤرخون أن بين تلاميذه كان بابا المستقبل بطرس بيرليوني الشاب الذي لم تفته محاضرة واحدة من محاضرات أستاذه أبيلارد، وكانت روح أبيلارد شديدة الشبه بروح بطرس هذا، حتى أن

بطرس بدا كأنه تجسيد لعقل أبيلارد المتوقد اليقظ، وفوق ذلك فقد سحر أسلوب حياة أبيلارد بما هو عليه من عدم التقيد بقواعد السلوك المبتذلة صاحبه بطرس وفتنه بقدر ما فتنته فلسفته الجديدة الثورية، والحقيقة أنه لم تحظ أية شخصية من شخصيات العصر الوسيط بالإعجاب حتي العبادة، وبالوقت نفسه بالكراهية والمقت كما حظيت شخصية أبيلارد، فقد بدا وكأنه لم يكن لديه موقف وسط، بل تحدى جميع المعتقدات المقدسة، ولم يحترم أية بديهية من بديهيات اللاهوت الواسعة الانتشار في زمنه، إذ لم تكن آراؤه مجرد تحد للأفكار بل محاربة لجميع المؤسسات اللاهوتية الدينية، لا بل حتى وجود الكنيسة ككل، وكان يسأل ويجيب عن كل ما يخطر على البال بالنسبة للشكوك والأسئلة التي كان يرددها شباب الجيل الجديد، أو على الأقل جعل الشباب يشعرون أن هذه الأسئلة لا بأس بها، وهي قانونية ومسموح بإبدائها لدرجة أنه جعلها في مستوى الشكوك الخلاقة، هذا وقد بلغت به الجرأة أن عرف وناقش علناً، وبصراحة، ودون خوف أو وجل كل قضايا العصر، وكل ما كان يعد في الماضي كفراً وإلحاداً، وكأنه يخطب فوق أحدث المنابر العلمية الشهيرة في أوروبا في الوقت الحاضر، ولقد وجد بطرس بيرليوني صدى لما كان يخالج نفسه من شكوك، وهذا ما زاد فرحه وغبطته خصوصاً وأنه لقي من يحترم هذه الشكوك، هذا وأصبح بطرس في منصب كهنوتي رفيع في ذلك الوقت، لكن لم يكن قد رقي بعد لمنصب الكاردينال، ومن المشكوك به أن يكون بطرس آنذاك وهو في باريس قد شارك أسرته في أفكارها وخططها الطموحة بالنسبة إليه، إنما لا شك أنه قد بلغ به الذكاء مبلغاً أدرك به أنه لأمر محفوف بالخطر المميت، لبابا المستقبل، أن يتحمس لآراء أبيلارد بصراحة، فالبابوية هي قمة المؤسسة اللاهوتية، ورمزها، وأما أبيلارد وتعاليمه المتطرفة، فلم تكن لتتفق مع المعتقدات الرسمية لهذه المؤسسة بحيث لم تكن لتقدم لبطرس أي استعداد أو رغبة بذلك المنصب الرفيع، ومع ذلك فقد بقي بطرس في باريس عدة سنوات، وهو غير قادر على أن ينسلخ عن صحبة أستاذه المحبوب، الذي سرعان ما تورط في قضية حب مخزية، لم يكن

لها مثيل في ذلك الزمن، ومع أن تلك القضية واجهت موجة من الغضب والاشمئزاز في صفوف رجال الدين، والسلطات الدينية، إلا أنها بدت جذابة ومحببة إلى نفوس تلاميذه الشباب، الذين عدوه مثلهم الأعلى، وأصبح كل خرق يقوم به للطهارة والعفة التقليدية ما هو إلاّ نتيجة منطقية لتعاليمه التي لم تكن تتقيد بالقواعد المألوفة المبتذلة، وأما بالنسبة لتأثير هذه القضية على حياة بطرس بيرليوني فقد استهجنتها الأسرة وأرسلت الرسول تلو الرسول لاستدعاء بطرس من باريس ليعيش في جو أكثر صحية من ذلك الجو، وهكذا خضع بطرس لمشيئة أسرته، وذهب إلى دير كلوني حيث قضى عدة سنوات كانت كافية لتلطيف أوضاعه وآرائه، وهو في مجتمع الإخوة في الدير الجديد، وبالنسبة لحياته في المستقبل، فدير كلوني كان لاشك الترياق أو الدواء الوحيد الشافي من انحرافات أبيلارد عن التقاليد المرعية، والمكان الصحي المناسب لشخص قد أهله قومه، ودربوه ليصبح راعي المسيحية جمعاء.

كان بطرس يحرص على حسن هندامه فيرتدي أفخر الملابس، وبعناية فائقة شأن سليل أية أسرة ثرية متفوقة، وإن معظم ما لدينا من المعلومات عن هذا الرجل، قد وصل إلينا عن طريق تلك الأقلام المسمومة التي استعملها خصومه، ولكن بعض هذه المعلومات يبدو جديراً بالتصديق، فهو يطابق الخلفية الملونة لهذا البيرليوني، ونحن لا نستطيع تصديق تلك الافتراءات التي أطلقت لتشويه سمعته، فيقولون أنه عندما كان يسافر إلى إنكلترا بصفته مبعوثاً للبابا، كان يصطحب معه فتاة شابة مع بطانته تلبس ملابس الرجال، وقد قيل عنه أيضاً أنه عندما كان في أكسفورد قضى معظم وقته في بيوت الفسق والدعارة في المدينة، حيث كان كيس نقوده المملوء ذهباً يجلب له كل أنواع المسرات والرعاية، والحظوة التي يبغيها، فمثل هذه التهم تبدو غاية في المبالغة والتضخيم، واستعملت خصيصاً في تلك المعركة المريرة التي تبعت تنصيبه حبراً أعظم، ومع هذا لا دخان بلا نار.

إن القرن الثاني عشر هو أروع قرون العصور الوسطى وأفخمها وقد دعي بحق عصر النهضة، فهو عصر الانتقال من القرون المظلمة والوحشية، ومن التعصب الديني والغموض إلى مفهوم مجتمع حر متفتح، كان يروق لأولئك الذين رحبوا به، وكان بطرس يصلح لهذا العصر ولهذا المجتمع، وهذا النوع الجديد من الاكليروس، ولو أفسح له المجال لأصبح نوعاً فريداً قائماً بذاته من البابوات، فقد كان يميل إلى الاستقلال المادي، والثقافة العالية، كما كان خبيراً باختيار المآكل والخمور والحكم عليها، مع حب شديد للحياة، ولكن للأسف الشديد لم يستطع أن يسير في هذا المضمار شوطاً بعيداً، فالقوى الرجعية الرهيبة كانت لا تزال في أوج قوتها، وخصوصاً في الكنيسة، وقد استهدفت هذه القوى بطرس بيرليوني بالذات ليكون ضحيتها وهدفها، وفي المعركة الدرامية الشرسة التي دارت بين بطرس أبيلارد وهو رمز التفتح في هذه الآونة وبين برنارد راعي دير كليرفو الرجل المتقشف الزاهد، الذي كان يدعى «الطبيب الحلو اللسان» أو «ذو الكلام المعسول»، وهو أقوى شخصية كنسية في زمنه، لم يكن بوسع بطرس بيرليوني إلا أن يخضع ويستسلم.

ومع أن الاستيقاظ والتفتح الذي حدث في القرن الثاني عشر، بدا فجائياً إلاّ أن مقدماته كانت واضحة، فالحروب الصليبية التي كان ينظر إليها كظاهرة دينية صرفة، قد ساعدت على احتكاك أوربا بعالم المشرق، الأمر الذي رفع أوربا من حالة الريفية وضيق الأفق، وقد عاد الفرسان الفرنسيون ومعهم رفاقهم في السلاح بعد سنوات من المغامرات بين ثقافات غريبة عليهم، غير مألوفة لديهم أمدتهم بها أمم جديدة، الأمر الذي وفر لهم اكتساب مفاهيم جديدة، ونظرات جديدة في الحياة، ولم يكن كل ما جلبوه معهم من المنتوجات من هذا العالم الرائع كالدمستق الشرقي والموسلين، والحرير والسجاد العجمي ليفرشوا به قلاعهم، والتوابل والبهارات ووصفات طهو الأطعمة لمطابخهم والزينات الخيالية الجميلة لدروعهم، بل إضافة إليه تلك المادة الجديدة للكتابة

وهي الورق الذي انتشرت صناعته عند العرب في إسبانيا ، إنما أكثر أهمية من كل هذا هو الروح الجديدة العالمية التي سادت أوروبا نتيجة للحروب الصليبية ، فالشعوب التي كادت تمزقها الاختلافات القومية تعلمت كيف تحترم بعضها بعضاً ، فالرجال الذين كانوا من طبقات مختلفة ، وحاربوا معاً ، أصبحوا يتعايشون معاً الآن ، ولدى عودتهم إلى أوطانهم بدأت مرحلة من الفراغ والوفرة وبحبوحة العيش ، فالاتصالات الثقافية بين أراضي المشرق وإسبانيا الإسلامية ، من جهة ، وبقية أوروبا من جهة أخرى ، أمدتهم بأبعاد جديدة في حياتهم اليومية ، إن عالم العصور الوسطى الذي انقسم به المجتمع إلى فئتين : الأولى فئة الكنيسة والبابا ، والثانية فئة الإمبراطورية والملك ، قد أضيفت إليه الآن مجموعة مستقلة قوية ، وهي عالم الجامعات ، وهذه الكلمة بحد ذاتها تعبر عن الثورة ، فكلمة جامعة لا تعني المجال الشامل للتعليم والعلوم فحسب ، بل الشخصية العالمية الشاملة للأساتذة والطلاب ، فقد تجمع هؤلاء وأتوا من عدة أقطار ، ومن عدة أمم ومن كل حدب وصوب ، إذ لم يعد التعليم محصوراً بأبناء النبلاء فقط ، ففي طليطلة كان العرب واليهود واليونانيون يعملون جنباً إلى جنب مع الأسبان والألمان والفرنسيين والإنكليز والبلقانيين ، وفي سالرنو تخصصت الجامعة بالطب تحت إشراف أشخاص يهود ، والمؤلفات التي درست هناك كانت من أصول قديمة ، ولم تكن النهضة التي حدثت في القرن الثاني عشر ، لتتم لولا الدور الفعال لليهود كمترجمين وشارحين للأدب العلمي والفلسفي القديم[(1)].

فقد استطاع العالم الغربي أن يطلع على أعمال أرسطوطاليس من خلال الفلاسفة العرب وابن رشد وابن سينا من العرب ، ولقد أصبح أرسطو الأساس الذي اعتمد عليه التعليم الجامعي ، والتفكير العقلي ، والتأملات في ذلك العصر ، وقد جمع بعضهم

---

(1) مكنت طبيعة التلون والازدواجية عدداً من اليهود من شغل دور النَّقلة والعمل في أكثر من بلاط وبلد ، وينبغي التنبه إلى أن اليهود الذين قاموا بدور النقلة تخرجوا من الوسط الأندلسي العربي ، وترجموا عن العربية ، يضاف إلى هذا حقيقة أخرى هي أن الذين أسسوا الجامعات في أوربا خاصة في جنوب فرنسا هم من عرب الأندلس .

الطب مع الفلسفة، ومارس ابن ميمون الطب في إسبانيا ومصر، وكتب فلسفته اليهودية، في كتاب دلالة الحائرين باللغة العربية[1]، وكانت النصوص اللاتينية والإغريقية تترجم من العربية والعبرية، وكان أرسطو رمز العقلانية الجديدة التي بدأت تنمو في العصور الوسطى، وعدّ (أي أرسطو) في أيام توماس الأكويني معصوماً عن الخطأ، (وقد مهد هذا الوضع الجديد السبيل لظهور مارتن لوثر وديكارت، لا بل حتى اندلاع الثورة الفرنسية نفسها).

أما الكنيسة، فمع أنها كانت لا تزال تهيمن على الحياة الدينية، إلاّ أنها لم تعد وحدة متراصة فقط وظهرت عدة طوائف ونِحَل جديدة على الرغم من المحاكمات والعقوبات الشديدة ضد الملحدين والمارقين، ولم يعد التفكير والنقاش مقصوراً على المواضيع اللاهوتية، فالهدف الجديد كان التوفيق بين المبادئ الدينية والأفكار الفلسفية، وكان منهج الدراسة في الجامعات يشمل قواعد اللغة والبلاغة والمناظرة والمنطق، وفي مناهج أخرى: الحساب والهندسة والموسيقى وعلم الفلك، وأما العلوم فكانت تدرس في مدارس منفصلة عن الجامعات، وكانت أول جامعة أحاطت بجميع المناهج هي جامعة باريس، في مدرسة كاتدرائية نوتردام، التي اشتهرت من خلال أبيلارد، وقد بدأ الألوف من الطلاب من أبناء النبلاء والفلاحين دراستهم في سن الرابعة عشرة، واستمروا في الدراسة ستة عشر عاماً، وقد غصت بهم مهاجع الجامعات، والبيوت التي تقدم الطعام للطلاب، وقد بدأت معالم الجامعات الحالية منذ ذلك الحين: الحرم الجامعي، والمهاجع، والشهادات الجامعية: البكالوريوس والماجستير والدكتوراه ومبادئ الدراسات الإنسانية كلها تأسست منذ القرن الثاني عشر، وعندما ظهر روبرت

---

(1) يشير هنا إلى موسى بن ميمون بن يوسف بن اسحق، أبو عمران القرطبي (529 ـ 601 هـ/ 1135 ـ 1204 م) طبيب فيلسوف يهودي، ولد وتعلم في قرطبة، وتنقل مع أبيه في مدن الأندلس، وتظاهر بالإسلام، فحفظ القرآن وتفقه بالمالكية، ودخل مصر فعاد فيها إلى يهوديته، وأقام في القاهرة / 37/ سنة كان فيها رئيساً روحياً لليهود، وعمل بعض الأحيان طبيباً في البلاط الأيوبي، له تصانيف كثيرة بالعربية والعبرية – أعلام الزركلي.

دي سوربون بعد حوالي مئة عام، وأضاف كليته الشهيرة والتي لا تزال تسمى باسمه، استطاع أن ينجح في هذا العمل، لأنه كان يبني على أسس راسخة تمثلها المدارس القديمة، وفي عام 1500 كان في باريس حوالي ستون كلية، وبالإضافة إلى جامعة سالرنو، وجامعة باريس، كان هنالك جامعة بولونا، وجامعة اكسفورد والجامعات الأخرى الكثيرة في الوطن العربي مما كان يؤلف إمبراطورية حقيقية مهمة للعلم والعلوم، ولم تعد مبادئ الكنيسة مقبولة دونما تمحيص وتحليل، وقد سادت روح جديدة من العقلانية، لا بل حتى من الشك، على الرغم من معارضة الكنيسة الشديدة، وقد بدت مدارس الرهبنات والتنسك والزهد عاجزة عن اللحاق بموكب العصر، وتطورت أشكال جديدة عقلية واجتماعية في مراكز المدن، (مع أنها لم تصل إلى روما) وبدأت النشاطات الموسيقية والإبداع الأدبي التي كانت الكنيسة تعدها ملكاً لها، بدأت هذه الإبداعات تزدهر، وقد أصبحت الأماكن النائية مثل ايسلانده (حيث ظهر حكماء الشمال) مراكز للعلم والأدب، وفي جنوب فرنسا وهي أرض التردبادور والمنشدين بدأت تظهر الأغاني الجديدة البذيئة، التي تتكلم عن الخمر والنساء، والأغاني في أوزان شعرية جديدة لا تخلو من جرأة، وبذلك تأسس ذلك التقليد الذي أنتج بعد حوالي مئة عام منشداً باسم فيلون، وقد كتبت أيضاً مجموعات من القصائد والقصص تعالج مواضيع جديدة جددت شباب القصة في العصور الوسطى وكذلك الرواية والثقافة الشعبية، مثل: قصص الملك آرثر والمائدة المستديرة وبارسيغال، وكانت الكنائس المقدسة كلها تنشد وتدل على الشجاعة المتناهية التي لا إحجام ولا رجوع فيها، وعلى القدر والإخلاص، وقد قدمت ذلك العالم المكتشف حديثاً، وهو عالم قصص الجنيات، والقصص البطولية إلى الجماهير المتعددة الألوان والصفات، والتي كانت تتجمع في الساحات، وكلها شغف وشوق لسماع رسالة القرن الجديد، هذا وقد أصبح الشعر الذي كان مقصوراً على الأغنياء والنبلاء، يسمع بالعامية وباللغات

الوطنية، ولم يكن بعضه يخلو من الابتذال والفحش والدعارة، وقد رحب عامة الشعب بتلك المادة الوسيطة التي تخاطبهم بلغتهم الوطنية، ولهذا أصبحت الأشعار الجديدة تتردد وتنشد في الشوارع.

وبدأت القلاع الإقطاعية، التي كانت تحتفظ بالمظهر العسكري البحت، بالتغيير، وأصبحت تتخذ مظهر القصور، وقد سمح مجتمع الذكور من الفرسان للسيدات في الغرب أن يقمن بدور رئيس في عالم المنشدين ورواة القصص، وبدأت حفلات الشراب تحتل مركزاً مرموقاً في الصور والنقوش النافرة واللوحات الزيتية، وبدأت سلسلة جديدة كاملة من حياة جديدة تجد لها طريقاً وأسلوباً للتعبير وهي أساليب صالونات الحب، وقد بدأت الروايات التمثيلية تمثل في مجتمع الثروة والبذخ، وأوقات الفراغ، ومع أنه لم تكن التنانير المنتفخة القاسية القماش قد ظهرت، ولا الشعر المستعار، إلا أنه يجوز لنا أن نقرن هذا المجتمع بمجتمع القرن الثامن عشر، حينما عرضت مسرحية «زواج فيجارو» وعزفت موسيقى الحجرة، وعلى كل حال فقد تراجعت وانهارت الموسيقى الرتيبة للعصور الوسطى، ليحل محلها تفرع الأصوات والنغمات التي اخترعها عباقرة نوتردام.

وحالما بدأ المجتمع الجديد يتحرر من جموده، نمت فيه صفة الانتقاد، وبدأ اللغط بكلمات جريئة ضد الاكليروس، فالهجاء الذي نشأ كشكل جديد من أشكال النقد الأدبي لم يوفر الكنيسة ولا الدين، فقد أعلن رامبور الأورانجي بصراحة دون خوف أو وجل: «أن ابتسامة فتاتي تجلب لي متعة وسروراً أكثر من ابتسامة أربعمائة ملاك»، لا بل حتى الكتاب المقدس لم يسلم من الهجاء الساخر اللاذع، وشاعت بصورة خاصة المحاكاة التهكمية اللاذعة التي تمثل جشع الاكليروس، وتسمى «الإنجيل طبقاً لمرقس الفضي»، وفيها مقطع جريء غير مهذب يسخر من موعظة الجبل إذ يقول: «حقاً، حقاً إنك سوف لن تدخل في ملكوت الرب حتى تصرف آخر فلس في جيبك لأجل الكنيسة» وأصبحت هذه الجرأة، التي كانت مستحيلة تقريباً قبل بضعة عقود من السنوات، الآن مقبولة لأنها

تمثل روح العصر، ولاشك أن بعض علماء اللاهوت الجديين بدأوا يعبرون عن شكهم تجاه بعض الأعراف والعادات المعترف بها، والمقبولة من قبل وقد أعلن ويبرت التنجوني عن شكه بقدرة الآثار والبقايا المقدسة، التي كانت مقدسة، واشتهر عنها أنها تفعل الأعاجيب، كما أنكر أبيلارد فاعلية المعجزات قاطبة.

وقد نمَّت العقلانية الجديدة التي تفسر التفكير النقدي، وتدافع عنه، والتي جمعت شمل الكثيرين من ذوي الخلفيات المتعددة حول هذا التفكير، روحاً جديدة من التسامح، إذن من الممتع أن نقول أن الحكاية ذات المغزى الأخلاقي عن الخواتم الثلاثة التي استشهد بها جوثولد افرايم ليسنغ في قصيدته الدرامية الشهيرة «ناتان الحكيم» والتي تعد كمقدمة لتحرير اليهود في القرن الثامن عشر، هذه الحكاية ذات المغزى الأخلاقي، قد كتبت في القرن الثاني عشر، وتقول هذه الحكاية أن أباً أعطى كل ابن من أبنائه الثلاثة خاتماً، ولم يكن بين هذه الخواتم الثلاثة إلا خاتم واحد من الذهب الحقيقي الخالص، ولكن لم يكن أحد يعرفه، وهذا هو الحال مع الحقائق الدينية، إذ من يعرف من هو الدين الصحيح من الأديان الثلاثة الموجودة: هل هو الدين اليهودي، أم الدين المسيحي، أم الدين الإسلامي يا ترى؟ ونرى من هذه المقارنات أن روح التسامح لم تطبق على العلاقات بين المسيحيين وغير المسيحيين، فحسب بل على العلاقات بين أفراد المجتمع المسيحي نفسه، فالنبلاء كان عليهم أن يعترفوا بهذا السيل الجارف الذي لا ينقطع من جماعات من أصول وضيعة غير نبيلة من المجتمع، وأخص منهم بالذكر أرستقراطية المتحولين الجدد، الذين ظهروا من أصول وضيعة، وكذلك ظهرت أمم جديدة كالنورمان، الذين لم يكن بإمكانهم الادعاء بانتمائهم إلى أصول نبيلة قديمة، ومع هذا أصبح هؤلاء النورمان يمثلون طبقة أرستقراطية عالية، صارت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الأوروبي، دونما أية جلبة أو جعجعة، وكان لهذه الارستقراطية الحديثة ما يقابلها ويوازيها في الاكليروس، فلم يكن يُسمح إلاّ للنبلاء بحيازة المناصب الاكليروسية العالية، ولكن الآن تغير الوضع فأصبح يحق لأصغر فلاح أن

يحتل أرفع المناصب الكنسية، وكما كان من الصعب التمييز بين الاكليروس وعامة الشعب في العادات والأمور الدنيوية، هكذا وجدت عملية مساواة في الكنيسة ذاتها، وقد كتب فردريك هير يقول: «كانت الكنيسة المفتوحة في أوروبا القديمة اتحاداً حياً لضدين هائلين: السماء والأرض، أو المادة والروح، أو الأحياء والأموات، أو الجسم والروح، أو بين الماضي والحاضر والمستقبل، فالحقيقة المجردة كانت مندمجة غير منفصلة، فلم يكن هنالك أي شرخ أو شق يفصل بين المخلوقات العادية والبشرية التي فداها المسيح، فالجميع من أصل واحد ومن دم واحد من أول إنسان إلى آخر البشرية، وكانت هذه الكنيسة الصريحة المفتوحة تحت رعاية وخدمة الأساقفة، والاكليروس الذين كانوا يعيشون حياة صاخبة مشرقة، ويقبلون الدموع والضحك من رعاياهم، وكانوا يمتلكون صفات مميزة حيوية، ولم يتوقف هذا الوضع من التسامح ورفع الكلفة إلاّ عندما اكتشفت الكنيسة أنها محاطة بالهراطقة والإلحاد بشكل يجعل الكنيسة بأجمعها عرضة للنسف، ولهذا انكمشت الكنيسة على نفسها، وفضلت أن تتصف بالصلابة، وعدم المساومة أو اللين».

وإذا قدرنا كمية المعارف الهائلة التي جمعها الإغريق واليهود والعرب، والتي تعرف إليها الغرب الآن، نجد أن لا غرابة أن قال برنهارد أسقف كارتر: «نحن أقزام نقف على أكتاف عملاق» ولقد قيل بأن لاهوت كارتر تحول إلى الرياضيات والهندسة و «لفلسفة أدوات اللاهوت» وصارت الرياضيات والهندسة النماذج العلمية وخاصة الأعداد بمثابة مفتاح لكشف أسرار العالم، وليس من الصدفة بمكان أن يصبح علم الأعداد السرية اليهودي، أي القبالة، أكثر من شيء من الماضي بالنسبة للتلاميذ المتفتحين.

ويعتقد البعض أن هذا الاهتمام بالمنطق والنظام والأرقام، ما هو إلاّ المسؤول المباشر عن ذلك الأسلوب المعماري الجديد، الذي سماه الإيطاليون بازدراء «الأسلوب القوطي» لأنهم عدّوه بربرياً، ومن السهل أن يتزامن استعمال هذا الأسلوب المعماري مع استيقاظ الروح المعنوية التي وجدت أن الكنيسة الرومانسيكية صغيرة وقاسية، لا بل حتى ظالمة،

وفي هذه الأيام ننتقل من كنيسة إلى أخرى في المواطن الكلاسيكية للفن الرومانسيكي، في جنوب فرنسا مثلاً لنجد كنائس: ريمس، وآرليس، وأورانج، ومويساك، بجمالها الطاغي الباهر، وذلك فقط بفضل بساطتها الملكية، وإيمانها الراسخ والفن الرفيع البادي في نحت تماثيلها، ولكن في القرن الثاني عشر عدت معتمة كئيبة، فهي لم تتخل عن جلالها وعظمتها، ولكن كانت كلمات العبادة تدعو للرهبة والخشوع، وكذلك الأبراج المستدقة، والسقوف المقببة، والزجاج الملون للنوافذ، الذي حل محل الموزاييك والفسيفساء صور الفريسكو المصنوعة من الجص على الجدران، والتي كانت من مميزات الفن الرومانسيكي، وقد تقدم علم الهندسة في تلك الأيام حتى استطاع أن يقدم لنا كاتدرائيات عظيمة مثل كاتدرائية تشارترز، وباريس، وريمس، وكانتربري، على سبيل المثال لا على سبيل التعميم، فالتماثيل الكبيرة التي تقف على أبواب كاتدرائيات: تشارترز، ونورمبورج، وستراسبورغ، وبامبرغ لم تعد مجرد زينات، بل أصبحت تعبّر عن قصص لأشخاص مذكورين في العهد القديم والعهد الجديد من التوراة بأشكال إنسانية مؤثرة، وأمام بوابتي كاتدرائيتي ستراسبورغ، وبامبرغ يقف تمثالان كبيران يمثل أحدهما كنيسة مسيحية، والثاني كنيساً يهودياً، فالكنيسة عبارة عن ملكة تلبس تاجاً على رأسها، وتعلو شفتها ابتسامة النصر العريضة، وتقف كما لو أنها قد ملكت العالم، وتنظر بتحد وبظفر إلى الكنيس اليهودي، الذي صور بشكل امرأة شابة، تحمل رمحاً مكسوراً، ولا تستطيع أن تنظر إلى الكنيسة الملكة، لأن عينيها معصوبتان وكتاب الشرائع يتساقط من بين يديها، ومع أن الكنيسة تظهر منتصرة، والكنيس مغلوباً على أمره، إلاّ أننا لا نجد أية محاولة للازدراء، أو للرسم الكاريكاتوري، فكلاهما سيدتان عظيمتان، على الرغم من أن الكنيس يجب أن يكون هو الأم، لأنه أقدم زمنياً، ولكنه يظهر كأنه الأب الأصغر، والأنحف قواماً، والأكثر جاذبية وحسناً، وربما كان هذا التمثال الشاهد المعبر الوحيد على مكانة اليهود واليهودية في القرن الثاني عشر، ولو قدر للروح العلمانية في الجامعات والبحث والتنقيب

الذي استيقظ أمره حديثاً للاستفسار العقلاني، أن يسود وينتصر لاختلفت قصة اليهود في العالم الغربي، وأصبحت ذات طابع أكثر احتراماً، لا بل حتى أكثر تبجيلاً مما كانت عليه، ولكن للأسف، كان على أوروبا أن تنتظر مجيء النهضة الإيطالية والفلسفة العقلية الفرنسية لتستأنف تلك النشاطات التي أجهضت، فالمرحلة المتوسطة هذه ظلت عدة قرون وهي تتسم بضيق الأفق، والإيمان التعصبي الأعمى، دون تعقل، فلم تتغلب روح أبيلارد، ولا روح القديسة جينفيف اللتان سادتا مؤقتاً ولكن أطفئت جذوتاهما من خلال مدارس الرهبنات بزعامة برنارد كليرفو، تلك المدارس التقشفية البندكتية، وبدأ التنكر والعقاب لليهود، وللهراطقة والملحدين يسود الموقف، وظهر أن الأمل بإيجاد عالم يسوده التفاهم والتعاطف، والرحمة قد تأجل إلى حين.

إن المعركة التي استعر أوارها دونما رحمة أو هوادة، والتي اشتبك بها بطرس أبيلارد، وبرنارد كليرفو، كانت ترمز إلى الحالة الفوضوية المضطربة في التفكير الأوروبي، فلقد توقفت تلك المعركة القديمة بين البابا والإمبراطور وكأنها لم تكن، فقد عدّ اتفاق ورمس، مع أنه لم يكن مرضياً بشكل كاف، عدّ معاهدة سلم، لا بل هدنة، فالمعركة التي نشبت الآن كانت داخل الكنيسة نفسها، فهل هنالك ميل لولادة روح مسكونية جديدة يا ترى؟ تتحمل وتتسامح مع الآخرين وبكلمة أخرى كاثوليكية بالمعنى الصحيح؟ أم هل كانت القسوة والصرامة، وعدم التسامح هي السبيل الوحيد للتغلب على تلك المشاكل التي أوجدها ذلك العدد الضخم من الطوائف، والنحل المسيحية الهرطقية، والتي لم ترغب أن تتماشى وتتفق مع المذاهب الرسمية للكنيسة؟ وهل ستستطيع الكنيسة أن تتجاوز هذه الأزمة وتستمر في الحياة، بعد كل هذه الحركات التشككية الانتقادية؟ أم هل كان (الاحتفال بفعل الإيمان)[1] والإحراق مربوطاً إلى عمود هو الجواب الوحيد يا ترى؟ ولكن

(1) الاحتفال بفعل الإيمان هو الاحتفال الذي رافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة من محاكم التفتيش على امرئ متهم بالهرطقة والذي يتبعه تنفيذ الحكم على يد السلطات الزمنية، وتوسعاً معناه إحراق المتهم بالهرطقة.

يظهر أن التاريخ اختار الواجب الوحيد هذا، وانتصر برنارد كليرفو أخيراً وعدّ من الأبرار الذين سينعمون بالخلود والسعادة السرمدية، وقاست الحرية وأشياعها أقسى المحن من الحرمان الديني والاجتماعي، فأحرقت الكتب ونبذت اللقيات والاكتشافات العلمية النفيسة، وحكمت أوروبا تلك النزعة العسكرية الكنسية، وظلت مسيطرة حتى انتصرت الإنسانية أخيراً على يد الفلاسفة الإنسانيين الجدد الذين أكدوا وثبتوا المقدرة العقلية البشرية، التي بشر بها ديكارت كمعيار ومحك للتجربة الإنسانية، ولم تجبر الكنيسة على التسليم بالعقيدة الجديدة إلاّ في قرننا الحالي، حين حدث حمام من الدم وتغييرات جذرية، وأجبرت الكنيسة على تبني المسلمة الجديدة التي تتبعها الآن في ممارسة الروح المسكونية الجديدة.

ولكن هذه الحقائق كانت متعذرة الرؤية بالنسبة لأبيلارد وبرنارد، وذلك أثناء التهاب نار معركتيهما الجبارة في قاعات المحاضرات في باريس، وأقبية الأديرة التابعة للإخوانيات البندكية، هذا وقد قدم البابا أناسولت – الذي كان يدعى اليهودي على عرش الرسول بطرس – إسهاماته للقرن الجديد، وفي النهاية أصبح ضحية هذا القرن، وذلك لأنه كان أحد تلاميذ أبيلارد اللامعين، لذلك أصبح من المحتم أن يكون البطل في تلك المأساة، ما دام أن هذا الوضع جعله مع الفريق الخاسر في العصر الجديد، فلو سادت الروح الجديدة وانتصرت لعد عهده كبابا أول محاولة تقوم بها الكاثوليكية في العصور الوسطى للتكيف مع الثورة الفكرية الجديدة، التي قام بها الشباب الأوروبيون الذين استبد بهم الغضب ولعدت محاولة للتطابق والتماثل مع آمالهم وطموحاتهم، فإلى زمن أبيلارد كان العالم يعدّ عالم الرجال الناضجين المسنين، أما الآن فأصبح العالم عالم الشباب، وكان بطرس بيرليوني واحداً من هؤلاء الشباب ولكن أستاذه المحبوب (كان محبوباً فقط وليس محترماً) قد قضى نهاية حياته وهو محكوم ومُدان، فلم يكن انتصار برنارد محطماً لآمال أبيلارد فحسب، بل كان هلاكاً بالنسبة لأناكلت، ولكي نفهم طبيعة نضال الانشقاق عن

الكنيسة الذي حدث عام 1130م : وهي المعركة بين الأذهان المتوقدة وبين الإيمان الأعمى المتعصب ، بين حب الحياة وإنكار قيمها من قبل الرهبان ، لكي نفهم هذا علينا أولاً أن نتفهم طبيعة رجل باريس ، ورجل كليرفو ، هذا وقد اعتقد أبيلارد أنه إذا كان على المسيحية أن تستمر في الحياة في هذا العالم الجديد الذي يقف على عتبة عصر جديد ، عصر العقل والتفكير ، عندها يجب إعادة تفسير الإيمان والعقيدة ، وأما بالنسبة لبرنارد فقد كان يعتقد أنه لا يمكن للإنسان أن يحيا حياة مسيحية حقيقية ، بالمعنى الصحيح ، وهو مشغول بأي نوع من مشاغل الحياة العادية ، فالرهبنة والحياة الرهبانية هي الحل الوحيد ، أي الرهبنة الصارمة التي لا تلين قناتها .

وليس هناك من شخصية في العصور الوسطى تروق للرجل المعاصر مثل شخصية أبيلارد ، ويدعي أعداؤه أنه «ابن رجل يهودي ، وأم مصرية» وقد افتروا على الكثيرين بمثل هذه الأصول والأنساب ، فقد قالوا عن واكيم فلورا أنه ابن شاهد أو كاتب بالعدل ، أو أنه فلاح غير حُر (قن) أو يهودي ، وكل من هذه الأصول تسبب له شيئاً من العار ، ولكن الحقيقة أن كل ما قيل عنه عبارة عن إشاعات سخيفة ، انتشر الكثير منها في العصور الوسطى ، فأبيلارد كان ابن أحد النبلاء من بريتاني ، وهي مقاطعة تقع في شمالي فرنسا ، خرج منها كثير من الرجال المشهورين ، وغير العاديين ، وتعد بريتاني مقاطعة غريبة ، لم تتغير حتى وقتنا الحاضر ، وهي موطن شعب غريب الأطوار فريد ، احتفظ بأصله الكلتي ، ولغته حتى هذه الأيام ، وهنالك على الساحل العاصفي حول فينستري يصبغون أقمشة الكتان المصنوعة محلياً بصباغ يستخرج من جراد البحر ، ويلبسون الأحذية الخشبية ، ويخافون الساحرات والشياطين ، كما كان آباؤهم في العصور القديمة ، فالكنائس التي صنعت سقوفها من القش (كما هي الحالة في البيوت) هذه الكنائس مهملة لأن هؤلاء البريتانيين لا يقبلون الديانة المسيحية بشكل تام ، وعلى مذابح الكنائس البسيطة ، يستطيع المرء أن يرى أقدام الأرانب التي وضعها المؤمنون المخلصون كهدايا وقرابين للآلهة التي

أصبح لها الآن أسماء مسيحية ، ولكنها بالحقيقة هي الآلهة الوثنية في الحقبة التي تقدمت على العصور المسيحية ، وقد عمد جوجين والرسامون الآخرون الذين رسموا بعض اللوحات في القرن التاسع عشر إلى تسجيل شيء من الروح المتوحشة في بريتاني ، فالنساء كن جميلات على الرغم من وضعهن الشرائط على أغطية رؤوسهن ، وعندما يلبس الرجال ملابس الزينة المبهرجة ، يظهرون كشخصيات مسرحية قدمت في غير زمنها المحدد ، وكان هذا الشعب مستقلاً يصعب حكمه ، وإن غاباتها التي تعود إلى ما قبل العصور التاريخية ، هي من النوع السليم الذي لم يتعرض للقطع بالفؤوس ، وأما المقابر الحجرية القديمة فهي لا تقف منعزلة كنظائرها في إنكلترا ، بل على العكس تظهر متصلة عضوياً ليس بالمناظر الأرضية فحسب ، بل بحياة البريتانيين الشديدة القاسية ، فكثير من الرجال يخرجون كل يوم عند الفجر لصيد السردين ، ولا يعودون إلا في المساء حينما تلمع غنائمهم من الأسماك تحت أشعة الشمس الغاربة ، شأن أمتعتهم التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل في أكواخهم الخشبية .

من هؤلاء الأقوام أتى بطرس أبيلارد ، ومع أنه نفسه كان نبيلاً وغنياً ، نبذ الأمن والطمأنينة في بيته الذي كان مملوءاً بالمشوقات ، وكما فعل «ديلان توماس» أو «برندان بيهان» أخذ يطوف في هذا العالم ليكون صورة وانطباعاً يروق له ، والحقيقة أنه قد تكوّن دافع لا يقاوم في حياة هذا الرجل وفي أطواره ، مما جعله يتفوه دائماً بالحقيقة المرة ، التي ظهرت في كتاب دون به سيرة حياته ، تلك السيرة التي تخلو من أي جمال أو سهولة أو سلاسة ، وسمى هذا الكتاب : «تاريخ المصائب» ، وسجل به الكوارث والمصائب والمعارك غير المتكافئة والمآسي التي تعرض لها مراراً وتكراراً ، فقد بدأت ممارساته للحياة العملية وهو في العشرين ، وانتهت وهو في الثالثة والستين ، ومن الغريب استمرار ودوام هذه الحياة المملوءة بالمصائب طيلة هذا الزمن ، فقد كان من المفروض أن يستهلك عقله وحيويته قبل هذا الوقت بكثير ، ولكن من المحتمل أن تكون قواه العقلية قد استنفدت ، إذ أن جسمه الذي حمل تلك الروح

الوثابة انهار أخيراً بسبب الإرهاق الشديد، عام 1142، هذا ولم يصدف أن سجل أي كاتب روائي مثل تلك القصص الحافلة بالرذائل والفضائل التي سجلها أبيلارد، فهناك في منتصف القرن الثاني عشر، وهي حقبة الهياج والقلق في أوروبا، عاش ذلك الإنسان ذو الروح الوثابة القلقة الذي ساهم عقله القلق في جعله فيلسوفاً متجولاً عنيفاً، في آرائه وحماسته البالغة، وساهم جسمه الضعيف الهش في جعله راهباً، ولم يصدف أن ظهر مثل هذا الرجل الذي احتوى صفات الألمعية والطيش، والإهمال والعبث، والشوق المضني للوصول إلى الحقيقة، الأمر الذي جعله يلحق الخزي والعار بأساتذته الذين احتقرهم، هذا الرجل الذي أنزل الأفكار والتفاهات المألوفة المبتذلة من على عروشها، ونصب ذلك السؤال المحرج بديلاً لها وهو «نعم و لا» تلك المقولة التي طبقها على جميع العقائد والمعتقدات السائدة في زمنه، والتي قبلها الناس دونما جدل، وكان يضع علامة استفهام على كل عقيدة لم يستطع أن يجد لها برهاناً، أو إثباتاً جذرياً يرضي العقل النيّر الخصب، وفي الوقت الذي كان فيه كبار القوم يرتجفون هلعاً عندما يعتريهم بعض الشك في مجال الإيمان، ويعدون أنفسهم متهورين طائشين عندما يخطر على بالهم ذلك القول الشهير: «أنا أؤمن، لأن هذا منافٍ للعقل، وهذا يعني أنه أمر مستحيل لا محال»، وكان يبحث عن ما دعاه الفيلسوف اليهودي الألماني هيرمان كوهين فيما بعد «الدين ضمن حدود العقل»، وكانت معالجته للموضوع شبيهة بأسلوب «كانت» تقريباً، فقد طبق فلسفة أرسطو على مجال الإيمان اللاعقلاني، اللامنطقي، عند ذلك بدأ الشباب يتقاطرون حوله ويضجون بالهتاف استحساناً وموافقة له ولأفكاره، وهكذا وأخيراً بدأت مرحلة التمرد العظيم، فحيثما ذهب أبيلارد وأينما علّم وحاضَر سواء أكان ذلك في كنيسة القديسة جينيفيف قرب باريس أم في مدرسة نوتردام في «آيل دي فرانس» أو حتى في الأرض العراء، كان الألوف من تلاميذه يحيطون به، فقد ظهر مؤسس وقديس تلك الطائفة الجديدة التي تعتمد على العقلانية، التي لم ير العالم لها مثيلاً لا من قبل ولا من بعد.

وكان بين تلاميذه فتاة في السابعة عشر من العمر، تنتمي إلى أسرة عريقة، ولم تكن تتمتع بالجمال فحسب بل كانت ذكية ومثقفة أجادت اللغتين اليونانية والعبرية، ولم تكن تقل جمالاً وأنساً عن «بوتيسيلي فلورا»، ولكنها تعلقت بتعاليم أبيلارد الفلسفية اللاهوتية الجديدة وكرست نفسها لدراستها، وفي أول الأمر جلست عند قدميه إجلالاً له وتعظيماً، ولكن بمرور الزمن وجد الحب إلى نفسيهما سبيلاً قادهما أخيراً إلى فراش أبيلارد، هذه الفتاة هي «هيلويسي»، التي أصبح حبها الصافي المشحون بالمعاناة نموذجاً للاندماج الخالي من أية أنانية في صميم كيان الرجل، وعندما أنجب هذا الحب العارم ولداً، إذا بعمها، الذي كان قسيساً يدعى فولبيرت يفاجئ أبيلارد في مخدع نومه ويخصيه كعقاب له على تجاوز الشريعة والتقاليد والفضائل المسيحية، وكان أن تزوج أبيلارد في لحظة من لحظات ميله للتكيف من هيلويسي رسمياً لأن حياتهما الزوجية قد أصابها الخزي والعار، وذلك لم يكن ليهم أبيلارد أبداً، ولم يفكر بهذا العار مطلقاً، ولا شك أنها كانت تشارك أبيلارد في أفكاره عندما قال: «إنه من الأفضل لها أن تدعى خليلتي حتى تكون رابطة الحب هي التي تربطني بها، وليس أية رابطة زوجية أخرى، وإذا ما افترقنا مدة من الزمن فإن متعتنا وسرورنا عند اللقاء ستكون أعظم بكثير، وذلك لندرتها وقلتها» والحقيقة أن لقاءهما أصبح نادراً، فقد أصبح هو راهباً، وأصبحت هي راهبة، ولم يعد هو رجلاً بالمعنى الصحيح، وأما هي فقد تعلمت أن تصعّد حبها وانفعالاتها الجسدية لتصبح عواطف راقية ممزوجة بالرحمة، والحب الروحاني، وقد كانت راهبة من نوع ممتاز ليس لها مثيل، فقد أحبها الأساقفة كابنة لهم، وأحبتها الراهبات كأخت لهن، وأحبها العلمانيون كأم لهم، وكان الجميع معجبين بتقاها وبورعها وحكمتها وصبرها ولطفها في معاملة الناس، ولم يرها أحد إلاّ لماماً، وذلك لأنها قصدت تكريس نفسها للعبادة والتأمل في حجرتها، ولكن مع ذلك فقد أصر الجميع على قصدها لتسدي لهم النصح المنشود.

لم يذكر التاريخ حباً تم التعبير عنه بتلك العاطفة، وذلك الحنان الذي اشتملت عليه رسالة أرسلتها هذه المرأة لأبيلارد، ومع أنها قد لبست مسوح الراهبات إلاّ أنها عبرت بها عن حب لم نسمع به من أحد قبلها أو بعدها، ولا يسعني إلاّ أن اقتبس فقرة من تلك الرسالة التي تعد وثيقة كتبت قبل أكثر من سبعمائة عام، وقد مضت الرسالة تقول:

«إنني قد رضيت أن أحطم نفسي مرضاة لأمرك، لا بل وأكثر من ذلك: إن حبي لك قد تحول إلى جنون، وقد قضيت على ذلك الأمل الذي يبغيه ويشتهيه كل إنسان، عندما بدلت نمط حياتي عن طيبة خاطر، وتحول قلبي أيضاً ليبرهن لك أنك أنت المالك الوحيد لجسدي فضلاً عن روحي، والله وحده يعلم أنني لم أكن أحبك إلاّ لشخصك، ولم أكن أرغب إلاّ فيك، وليس في أي شيء آخر تمتلكه، ولم أطلب أي صك للزواج، ولم أتطلع إلى أي مهر، ولم أجاهد لأجل إرضاء رغباتي، ولا لفرض إرادتي، بل كنت أجاهد لتنفيذ رغباتك وإرادتك، وإذا كان اسم الزوجة أكثر قداسة وديمومة، فإن كلمة الخليلة أحب إلي وأجمل وقعاً في نفسي، وإذا كنت لا تغضب مني قلت محظية، أو حتى مومساً، لأنني أشعر أنه كلما خفضت نفسي أمامك للحصول على عطفك، كنت أكثر أملاً وحظاً بنيل ذلك العطف، وبهذا يقل احتمال إيذائك، والتعرض لكرامتك وسمعتك، وإني أشهد الله أيضاً لو طلب مني الإمبراطور أغسطس سيد العالم أن أتشرف بالزواج منه، وأن أكون شريكته في الحكم لكنت أعد أن وجودي كخليلة لك أفضل وأكرم عندي من أن أصبح إمبراطورة».

إن مثل هذا الحب لا يستحقه أي إنسان، ولكن أبيلارد اللامع الواضح الأصيل المبدع، والأستاذ العظيم، والرجل الجذاب كان هو أيضاً مزهواً، ومختالاً وأنانياً، فلم يكن حبه مركزاً على إنكار الذات والعاطفة المشبوبة، وقد توفي قبل محبوبته هيلويس بنحو عشرين عاماً، ولذلك واحتراماً لحبهما العارم دفنا معاً في قبر واحد في بيري لاشيز في باريس.

عن قضية حب أبيلارد هذه، وهي أعظم وأضخم فضيحة تميزيها ذلك العصر، هذه القضية لم تبتعد كثيراً عن قصة بطرس بيرليوني، الذي درس على أبيلارد في كنيسة القديسة جينيفيف، وفي باريس، وإذا ما عددنا أن حياة هذا الأستاذ الخاصة كانت قذرة دنيئة، لذلك عدت تعاليمه وفلسفته كذلك بالنسبة للكنيسة وتعاليمها، وهكذا نشأ الخلاف العظيم بينه وبين القديس برنارد، ذلك الخلاف الذي شمل أناكلت أيضاً، ولم يكن هذا الخلاف ناشئاً عن تغير وشرح العقيدة المسيحية بقدر ما كان ناشئاً عن سلوك أبيلارد الشخصي أيضاً، وهكذا لم تكن المعركة المأساوية ضد أناكلت البرليوني مؤسسة على القانون الكنسي، أو حتى على العقيدة المسيحية بل على نتيجة تقويم حياته الشخصية، وأخلاقه، وبالنسبة لبرنارد ووجهة نظره: إن أي شخص له أي ارتباط أو تماس بالمذنب والخاطئ الأكبر أبيلارد، يعدّ فاسداً، وأنه قد لوث نفسه.

وبما أن بطرس بيرليوني كان قد جلس عند قدمي مثل هذا الأستاذ، لذا تكفي هذه التهمة لإدانته، وبما أن أسلوب أبيلارد الذي قبله توماس الاكويني وغيره فيما بعد، كان محاولة لفلسفة علم اللاهوت، أي رفع الفلسفة إلى منزلة العلم المسيطر الموثوق بصحته، أصبح علم اللاهوت والحالة هذه ثانوياً خادماً للعقل، بدلاً من كونه ملكاً مسيطراً على الإيمان، وبدلاً من الإذعان للتقاليد الدينية المقدسة المبجلة وقبولها، عمد أبيلارد إلى قبول إمكانية التشكك بقوله: «هذا ممكن» وأحياناً بقوله «لا» بدلاً من «نعم»، وهكذا عدّ أبيلارد مذنباً مرتكباً الخطيئة، وبغض النظر عن تعاليم الكنيسة، نرى أن أبيلارد بدأ يعلّم، ويقول أنه لا يمكن التمييز بين الخير والشر بواسطة فعل الإنسان، بل بواسطة نيته، وإن مثل هذه الحالة الأخلاقية التابعة للمذهب النسبي[1] من الممكن أن تقودنا للبحث في نفسية الآثم الشرير، بدلاً من الشر نفسه، ولكن ألم يكن الإنسان مكبلاً بخطيئة آدم، وهي الخطيئة الكبرى التي ليس منها مهرب؟ وهنا أيضاً نرى أبيلارد يرفض التقاليد ويقول إن الذي ورثناه عن آدم ليس الخطيئة بحد ذاتها، بل «العقاب» ولكن طبقاً للنظام اللاهوتي القديم المؤسس على الاعتراف

---

(1) المذهب النسبي: نظرية تقول أن الحقيقة نسبية أو بأن الحقائق الأخلاقية تتفاوت تبعاً للفرد والزمان والظروف.

بالخطيئة، والذي بشَّر به النظام الكنسي، قدمت فكرة الخطيئة لعالم من الآثمين الخاطئين المتلهفين للعفو، والغفران ليس للتخلص من آثامهم فحسب، بل من تلك الخطيئة الموروثة، وهي خطيئة آدم، وذلك العالم الذي لم يحصل على الخلاص ولا الفداء إلا بواسطة دم المسيح، ولهذا فإن هذا العالم يرفض رفضاً باتاً تلك التعاليم التي قدمها أبيلارد، بل عدّها مجرد هرطقة وكفر وإلحاد، ولكن أبيلارد لم يكتف بهذا، بل قال إن الإلهام الإلهي ليس مقصوراً على علماء اللاهوت فحسب، بل يشترك به الفلاسفة أيضاً، فكيف يستطيع وهو الرجل ذو الضمير الحي أن يستثني ويبعد أفلاطون وأرسطو عن النعمة الإلهية؟ ولكن نجد الكنيسة هنا من جهة أخرى تميز المؤمنين المخلصين عن الوثنيين، واليهود الخونة الغادرين، والمسلمين، لذلك لا تستطيع أن تهب مثل هذه النعمة للفلاسفة الذين لا يخرجون عن كونهم مجرد وثنيين وخطاة مذنبين؟ أليس هذا غُنم لا يستحقونه؟

وهكذا عد أبيلارد المحطم للتماثيل الدينية، والمحطم للتقاليد القديمة، هذا وقد راقت أغانيه الشعبية التي كتبها باللغة العامية الشعبية لجماهير الشعب، في شوارع باريس، وقد وصلت به وقاحته إلى محاولة الجدل مع أساتذته، ولما كان أذكى منهم وألمع، فقد أنزل منزلتهم أمام طلابهم، وقد استلم شهادة الماجستير في العلوم من مدرسة القديسة جينيفيف الشهيرة، وهو في الثانية والعشرين، وعندما حُرم وأدين وأجبر على حرق كتابه عن الثالوث المقدس، انسحب من الحياة العامة وذهب إلى نوجنت سورسين، وهو مكان مهجور مقفر، ولكنه وجد أن جميع طلابه قد تبعوه إلى ذلك المكان، وبنوا مهاجعهم البسيطة حول ذلك المكان، وهنالك أقاموا محاضرات تسمى «باراكلت» حيث استمر يحاضر ويعلم بذكاء وفطنة مع الازدراء والاحتقار لجميع الأفكار المعاصرة المبجلة، وكان مطارداً من مكان لآخر، ومع أنه كان راهباً، إلاّ أنه لم يسمح له بممارسة القداس والاقتراب من مذبح الرب، لكونه أصبح مخصياً أي أنه كان مشوهاً جسدياً، ومنكسراً معنوياً وقد قضى أواخر أيامه في دير كلوني حيث وجد هناك أشخاصاً يحترمونه ويفهمون أصالته واستقامته، وسلامة عقله وكماله.

أما برنارد راعي دير كليرفو (الراهب الأبيض) الذي تسبب في نفي أبيلارد وتعاسته، فقد قيل أنه هرع إلى دير كلوني حيث أبيلارد وجلس إليه عند سرير مرضه، وقد لاحظ بطرس المبجل أنه رأى الرجلين يتعانقان في قبلات الحب والسلام، ولكن وا أسفاه! لقد حدث هذا بعد فوات الأوان، إلا أن برنارد ظل يلاحق أبيلارد منذ أول يوم بدأ فيه هذا بالتعليم، وكان يراقبه بقلق، وغضب التقى والدين، وباشمئزاز خصوصاً عندما انتشر نفوذه خلال باريس وما وراءها، فقد كان أبيلارد يمثل كل ما كان يقاتل ضده بحماسة ومرارة.

لقد التحق برنارد، وهو النبيل البيرغندي السالف، بالرهبنات السستراشانية Cistercians «الرهبان البيض»، الذين لم يكونوا على وفاق أو على ما يرام مع دير كلوني، حيث كانت الفنون والعلوم تحترم وترعى وتشجع، أما أديرة السسترشيان فقد كانت فقيرة ومهلهلة، وكان الرهبان يقتاتون أطعمة فقيرة غير مغذية تعتمد على الخبز والحشائش المسلوقة، هذا وقد صُدم برنارد الذي كان معتاداً على المآكل الدسمة في قصر والده، وأصابه الاشمئزاز، والغثيان أولاً عندما رأى ذلك الطعام البائس، ولكنه عاد فتناوله بشكل بطولي، وقد كان قصده أن يعيش ليتغلب على الإغراءات الجسدية، وأحياناً كان يغمس جسمه بالماء المثلج للتغلب على هذه الإغراءات الجسدية، وكان محياه الشاحب الذي أصابه النحول بسبب الإرهاق والصيام، يبدو وكأنه أثيري القوام، ولذا أصبح تأثيره المعنوي عظيماً لهذا السبب، حتى أن مجرد النظر إليه كان كافياً لإقناع سامعيه قبل أن يفتح فاه، هكذا قال عنه ويبولد رئيس دير ستافيلوت: بأنه قد كان في الثانية والعشرين من العمر، عندما ترك ضيعة والده ليصبح راهباً، كله غيرة وحماس، وعدم صبر وتهور في إرضاء رغباته الجسدية، ولكن تلك القوة وذلك الحماس والدم الفائر كالخمرة المسكرة، لم يسمح له بالراحة أو الاستكانة أو الاسترخاء، وفي دير كليرفو كان الرهبان ينامون في مهاجع تشبه توابيت الموتى، وكان رئيسهم برنارد ينام على لوح قاس

من الخشب تحت بيت الدرج، وكان الجمال محرماً بالنسبة لقواعده وقوانينه التقشفية الصارمة، هذا وقد قال في إحدى العظات التي قدمها يصف الأسلوب القوطي الجديد في الكنائس: «إن العلو الهائل في أبنية الكنائس، والطول غير العادي فيها، واتساع صحن الكنيسة بشكل لا لزوم له، والأحجار اللامعة المقصَّبة المكلفة، والرسوم واللوحات التي تلفت النظر، يا لها من تفاهة التفاهات، لا بل هي أسوأ من التفاهات، فنحن نرى جدران الكنيسة تشع وتلمع ولكن فقراءها يسيرون عراة الأجسام، وهي تزين أحجارها، ولكن أبناءها يسيرون عراة».

ولقد كان برنارد مريضاً دائماً، ومع ذلك فقد كان يسافر تحت أسوأ الظروف، ويقطع جبال الألب على ظهور الخيل قاصداً روما، لا بل حتى صقلية تسوقه الرغبة العارمة بتعصب وإصرار لمحق نفسه وإبادتها في سبيل خدمة الكنيسة، فالكنيسة هي أمه الرؤوم، مع أنه كان يقدس مريم العذراء، وكان أول شخص دعاها سيدتنا وقد رفض أن يدعو أية امرأة أمّاً ما عدا الكنيسة، وإن أعماله العظيمة هذه تعدّ تعليقاً لاذعاً على نشيد الإنشاد، وهو الكتاب الذي يصف علاقة الحب بين الرجل والمرأة، ويمكننا عدّ هذه التعليقات مفتاحاً لنفسية هذا الرجل الضخم، الفارس الشهم الخادم للمسيح، لقد كان أمراً طبيعياً أن تتولد الكراهية بين مثل هذا الرجل وبين أبيلارد، إذ أن قضية هيلويسي سببت له الاشمئزاز، فقد كان أدرى الناس بالإغراءات التي استطاع التغلب عليها واجتثاثها من نفسه، فقد كان لديه كراهية عميقة واحتقار للمرأة لأنه كان يخشى أن يقع في الحب، ووصل به الأمر أن عدّ زهو وخيلاء الاكليروس نوعاً من الغرور الأنثوي، وذلك عندما قال لهم «لماذا تتزينون كالنساء، ما دمتم لا ترغبون أن ينتقدكم الناس! فالشهرة تكون بالعمل، وليس بالقبعات المصنوعة من الفراء والزينة، هل تظنون أن علي أن أقفل فمي ما دام أنه لا يجوز لراهب بسيط أن ينتقد الأساقفة؟ وأتمنى لو أقفلتم عيني أيضاً، ولكن لنفرض أني بقيت صامتاً فلاشك أن الآخرين سوف يتكلمون، وسوف يهبُّ أولئك الفقراء

العـراة الجيـاع ويصرخـون : إن رفـاهيتكم تفـترس حياتنـا ، وأن تفـاهتكم تسـاهم فـي سرقة ضرورياتنـا» ، هـذه هـي الصفات التي تحلى بـها برنـارد ، والتـي جعلـت منـه أقـوى شخصية كنسية في العصر دون منـازع ، تلـك الصفـات التـي تنحصـر بالحمـاس والإحسـان والحيوية التي لا تقبل مسـاومة ولا تنـازلاً فـي شؤون الإيمـان العميـق والتكريـس ، تكريـس النفس للقضية ، وهكذا فإن صدامه مع أبيلارد لـم يكـن صداماً شـخصياً فحسـب بـل كـان صداماً صادراً عن إيمان عميق .

وقد وجه كلاماً لأبيلارد الذي كان يدعو لاستخدام الفلسفة فـي فحـص واستقصاء وانتقاد التعاليم اللاهوتية : «ماذا يهمني من الفلسفة ، والرسل هـم المعلمـون الذيـن أعـترف بـهم ، فـهؤلاء لـم يعلمونـي أن أقـرأ أفلاطـون ، أو أحـل ألغـاز ومكنونـات أفكـار أرسـطو ، ولكنهم علمونا كيف نعيش ، وصدقني أن هذا العلم ليس علماً بسيطاً» .

لم يكن هنالك مجال للتفاهم بين الرجلين ، فكـان الإيمـان مسـلطاً بشـكل لا يقبـل المساومة ضد العقل ، وعندما اجتمع الرجلان في سنس عام 1141م ، وضح أنه لـم يكـن هنالك أساس عام أو نقاط تصلح للمناقشة بينـهما ، فقـد كـان برنـارد لا يعـترف بسـيطرة العقل الذي ليس له أي تقدير بالنسبة للإيمان ، وعدّ التفكـير نوعـاً مـن الثـورة والتمـرد إذ كيف تستطيع روح الإنسان الضعيفة العاجزة الملتوية أن تتجرأ على فحص وانتقاد شـؤون الإيمان يا ترى؟ فالإيمان ليس لـه عينـان ، وليـس لـه أذنـان ، ولا عقـل لـه ، «وأن تؤمـن ، معناها أن تؤمن ، وتقبل ذلك وتعيش» ، ثـم قـال : «إن بطـرس أبيـلارد يحـاول أن يعبـث بفضائل الإيمان المسيحي عندما يظن أن لديه القدرة أو أن العقل البشري لديه القدرة علـى تفهم الماهية الإلهية كلياً ، فهو يرتفع إلـى السـماء ، ولكنـه ينحـدر إلـى الهاويـة ولا شـيء يمكن أن يحجبه عن الانحدار إلى أعماق الجحيم ، أو عـن الصعـود إلـى الأعـالي ، فـهذا الرجل عظيم ولكن بتقديره الشخصي فهو يبـدو فخمـاً فـي جلالـه الفـارع ، وهـو خـلاق البدع ، والضلال والكفر» .

بالحقيقة أننا نظاهر أبيلارد، فهو قد كان رجل المستقبل، أما برنارد فقد كان رجل الرجعية والماضي، ولكن في القرن الثاني عشر كان برنارد رجل الحاضر، إذ كان رجال أبيلارد أقلية لا قيمة لهم ولا أمل، وعندما حضر برنارد للقيام بالتبشير في كنيسة القديسة جينيفيف، إذ بعشرين رجلاً من أتباع أبيلارد يتبعونه ويهجرون أستاذهم، ويذهبون إلى حياة البؤس في واحد من الأديرة السسترشانية يدعى فالد أبسنزي، فلقد كان برنارد مبشراً غزير الإنتاج، فقد نشر حوالي ثلاثمائة واثنتين وثلاثين عظة، وأربعة عشر كتيباً، وقد وصل لنا حوالي خمسمائة من رسائله النارية الغاضبة، الدالة على اتساع أفق معرفته وعلمه.

لقد كان برنارد أولاً وآخراً راهباً، فقد كانت الطاعة العمياء لقواعد نكران الذات، والقسوة، والتزمُت والعفة والفقر، كلها تلتقي مع ميوله الشخصية، وإيمانه العميق، وقد ادعى أن ليس لديه إرادة لذاته، بل كان الخضوع التام والامتثال لإرادة الله هي إرادته، ومع أنه كان يؤمن بالإله الرب، إلا أن اتحاده الديني كان بالابن، وكان يرهب سامعيه بما يورده من الأوصاف الدقيقة لآلام المسيح على الصليب، وكان يؤكد حالة التطور بالإنسان لما يدعوه الإنسان الإله، ولقد كانت حتى أقمطة المسيح وهو طفل رضيع لها دلالتها الخاصة بالنسبة إليه، وكانت حماسته الملتهبة مؤهلة لجعله مبشراً ناجحاً، ومع أنه قال: «إني أشعل ناري على لهيب التأمل»، إلا أن هذا التأمل كان تأملاً ملتهباً، ولكنه كان لامعاً أيضاً، وذلك لأن ضمير المسيحية لم يكن متأملاً ولا ضعيفاً ولا ذليلاً، وفي خطابه ضد أرنولد صاحب برسكيا - وكان واحداً من تلاميذ أبيلارد اللامعين - استعمل هذه الكلمات: «إن أرنولد يمتلك قدرة كلامية حلوة كالعسل، ولكن تعاليمه هي السم الزعاف، فرأسه حمامة، ولكن ذنبه ذنب عقرب، فكل ما يجتره برسكيا تنبذه روما وتنفر منه فرنسا، وتمقته ألمانيا، ولا تستسيغه إيطاليا»، والحقيقة أن هذه ليست لغة راهب متفرغ للعقل والتعقل، وللصبر كالقديسين، إنما هي لغة رجل مستعد للتمزيق والتخريب، ولا عجب أن يقول نقاده أنه حتى بوجهه الهزيل استطاع السيطرة على الناس والتأثير عليهم،

وتلك المقدرة التي كانت تساعده بشكل لا نظير له عند مناظراته في القضايا الكنسية وعند انغماسه في السياسة العالمية والتفاوض مع الملوك والأمراء، وكان يُتمُّ كل ذلك لمرضاة الكنيسة ولم يكن مستعداً للمساومة أو التسوية أو التساهل، ولم يفرط بمقدار ذرة من اعتقاداته، ومع ذلك فإن تحول راهب كليرفو إلى حاكم حقيقي فعلي للكنيسة (فقد كان أقوى بكثير من البابا) هذا التحول كان إحدى النقاط الحاسمة ليس في حياته الشخصية فحسب بل في حياة الكنيسة برمتها.

وكان السبب المباشر لهذا التغيير الذي حدث في سلطة الكنيسة وبنيتها، هو تولي بطرس بيرليوني شؤون البابوية، إذ لا مندوحة لنا عن تفهم الخلفية الملونة للحوادث التي أدت إلى انتخاب بطرس، وبالتالي إلى الانقسام العظيم في الكنيسة عام 1130م، إذ أنه بعد وفاة كاليكسيوس الثاني عام 1124م انتخب لامبرت أسقف اوستيا خليفة له بسرعة، وبشكل لا يتفق مع القوانين الكنسية المرعية، وتم ذلك بمساعدة آل فرانجيباني، تلك الأسرة التي كانت قد تحالفت مع آل بيرليوني إلى حين، ولكنها أصبحت الآن مستعدة للعمل لحسابها الخاص، إذ ثبت لها أن العمل مع آل بيرليوني لا فائدة منه، ولذا أصر آل فرانجيباني على انتخاب مرشحهم، وبمساعدتهم نُصِّب لامبرت حبراً أعظم باسم هونوريوس الثاني (1124 – 1130م)، وقد ضرب بعرض الحائط بمراسيم الانتخابات التي أصدرها نقولا الثاني، والتي حددت إجراءات الانتخابات البابوية، ولكن انتخاب هونوريوس قد ثبت فعلاً، وهكذا ربح آل فرانجيباني أول نصر لهم على حلفائهم الماضين.

أصبح بطرس ليونيس زعيم آل بيرليوني الآن رجلاً مسناً، مريضاً وليست لديه القدرة الكافية على المقاومة، ولقد قدم للعالم اسم ابنه بطرس ولكنه – أي الأب – كان منبوذاً، وبعد أربع سنوات وفي الثاني من حزيران عام 1128، لفظ أنفاسه الأخيرة، فقد توفي صديق هيلد براند الحميم القديم وصديق أوربان الثاني أيضاً، وقد دفن باحتفال مهيب في كنيسة القديس بولس خارج أسوار روما، وقد كان ناووسه فخماً مزيناً، وهو

القبر البيرليوني الوحيد الذي لا يزال ماثلاً حتى اليوم، وهو واقع قرب مذبح الكنيسة، وهذا تشريف عظيم لرجل أقل ما يقال عنه أنه كان نبيلاً بارزاً وقنصلاً رومانياً، ولكنه كان لا يزال يذكر (كرجل مرتبط أصلاً بالجماعة اليهودية)، وبعد احتراق الكنيسة عام 1823 نقل ناووسه إلى موقعه في الرواق المعمد المسقوف والواقع حول الكنيسة، حيث يظهر بجلاء كأكبر نصب من الأنصاب الكثيرة الموجودة حوله، وقد بقي سالماً لم يمس تقريباً، (الزاوية الصغيرة على الجانب الأعلى مخلخلة قليلاً) وعليه نقش هذا النص:

«فليحفظك الرسولان بطرس وبولس يا بطرس ليونيس، وليعطياك الروح السماوية التي أحببتها، وأخلصت لها، وهكذا ليكن معك نور المجد السماوي إلى الأبد».

لقد مات بطرس وحوله أبناؤه التسعة، وابنته، وأفراد من الأسر النبيلة في روما، وأفراد من الاكليروس، وقد أطبق الكاردينال بطرس عيني والده، تينك العينين اللتين كانتا تذوبان شوقاً لرؤية ولده، يجلس على عرش البابوية، ومع أنه كان أمراً طبيعياً بالنسبة لأي كاردينال في الكنيسة المسيحية أن يعدّ نفسه مرشحاً مرتقباً للبابوية، إلاّ أن القلائل، وكما رأينا، كان لديهم الاستعداد الكافي لتولي هذا المنصب، كما كان بطرس، فقد أعطت هذه الأسرة عدداً من رجالاتها للكنيسة، ومنهم يوحنا جراتيان، الذي حكم باسم غريغوري السادس، وثبت أن حكمه قد أجهض، لكنه على أي حال قد خلص البابوية من ذلك الرجل اللاأخلاقي، ووضع قدر الكنيسة في كف دير كلوني ورجاله المخلصين المصلحين والمطهرين للكنيسة والذين رحبوا به بسرور كواحد من أفرادهم، وحقيقة كونه بيرليونياً وسليل أسرة يهودية أباً وأماً لم يكن له تأثير يذكر، فقد أصبح كاثوليكياً مخلصاً، ولم يشك في إخلاصه أحد من الناس، هذا وقد تبعه هيلد براند باسم غريغوري السابع، وأدخل هذا تلك الأسرة المتحولة إلى الديانة المسيحية، في صميم الشؤون الكنسية، فلم تعد تلك الأسرة تعد مجرد مولة للبابوية، بل أصبحت حامية للبابوات، وأخلص المخلصين لحزب البابوية العتيد، وأصبح حكام تراستفيري دون منازع أصحاب معاقل

روما الحصينة ، وكان هيلد براند يمت إلى هذه الأسرة برابطة الزواج والمصاهرة على الأقل ، وهكذا فهو سليل غير مباشر لباروخ اليهودي ، وأما بطرس هذا فكان من أحفاده المباشرين ، فهو حفيد باروخ ، وهو حفيد ليو ، وهو ابن بطرس كما رأينا ، وكانت تجري في عروقه دماء الأسرة اليهودية المتحولة ، وقد ثبتت به هذه الصفة ، والتصقت به أكثر من التصاقها بأي بيرليوني آخر ، وصرح بذلك الصديق والعدو ، إذ أن مظهره كان مظهراً يهودياً بيرليونياً صرفاً ، ومع أنه كان معمداً وحفيد جدّ أعلى متحول إلى المسيحية ، وواحد من أفراد عائلة قامت بدور رائع في تاريخ البابوية ، إلاّ أنه كان يعدّ دوماً يهودياً ، وكان يذكر بتلك الحقيقة طيلة حياته .

في الوقت الذي مات به بطرس ليونيس ، كانت روما قد بعدت عن المجاري الرئيسة للحركات الثقافية والعلمية في أوروبا ، فقد كرس هنوريوس الذي كان لا يزال حبراً أعظم جهوده للقضايا السياسية في جنوب إيطاليا وصقلية ، ولم يكن هذا البابا عظيماً ، كما أنه لم يكن سيئاً ، فقد أظهر قليلاً من الإبداع الروحاني ، الذي لم تكن روما بحاجة إليه ، فلقد كانت روما أقل مركز استفاد من النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر ، إذ أن الجامعات العظيمة تمركزت في أماكن أخرى غير روما ، وكانت المناظرات والمعارك الأخلاقية والدينية تجري خارج روما ، بين دير كلوني ودير كليرفو ، لا بل حتى فن المعمار الحديث لم يصل إلى روما ، وهذا شاهد على أنه لم يكن هنالك أية كنيسة مبنية على النظام القوطي في ذلك الزمن في روما ، بل كان هنالك كنائس رومانسيكية ضئيلة القيمة ، وبذا فقد تجاوز هذه المدينة الخالدة التي كانت تتصل بالعالم الكاثوليكي الخارجي وتعد قلبه النابض ، إلاّ أن روما كانت تعيش حياة عزلة وانفصال عن العالم الخارجي ، فقد كانت المراسيم البابوية والقوانين تصدر ، والمجامع المسكونية تعقد ، والملوك يتوجون ، والحجاج يغدون ويروحون ، وفلوس بطرس تصل إلى الخزانة البابوية ، ورسل البابا وممثلوه وموفدوه يطوفون في جميع أنحاء العالم ، لكن روما نفسها كانت تسير في حياتها الخاصة تسيطر عليها عصابات النبلاء

الذين كانت تتألف منهم المجامع الكنسية، ومنهم يأتي البابوات وينتخبون، وبعد اتفاقية ورمس لم يعد للملك أي صوت في انتخاب البابوات، ومع أنه كان للنبلاء حق في التصويت، إلاّ أنهم لم يكونوا أحراراً أو غير مقيدين في أعمالهم، فقد كانت القوانين الخاصة بانتخاب البابوات قد صدرت، ولكن هؤلاء النبلاء قاموا بدور مركزي في المستقبل خلال النزاع بين أسرتي فرانجيباني وبيرليوني، ذلك النزاع الذي أدى إلى حوادث درامية خلال الاحتفال بقداس عيد الميلاد عام 1129، فقد أصيب البابا هونوريوس الثاني بمرض وأغمي عليه، وحالما حملوه إلى حجرة نومه البابوية، تبين أن القضية لم تكن مجرد إنهاك وتعب شديد، لأنه كان قد تعرض لذلك المرض الكثير الحدوث في القرون الوسطى، وهو الحمى الرومانية الناتجة عن المياه الملوثة، وكانت مرضاً خبيثاً يخشاه الجميع، لأنه كان مميتاً على العموم، وهكذا عد البابا في حالة خطر من اليوم الأول لإصابته، وكانت تصيبه حالات من الإغماء من وقت لآخر، تستمر عدم أيام، ولقد ظهرت الحاجة الملحة لتعيين شخص ينوب عنه في إدارة شؤون الكوريا، ووقع الاختيار طبعاً على هيميرك الذي كان يخدم البابا كيلاكستوس كمستشار، واستمر في ذلك المنصب زمن هونوريوس، وكان هذا رجلاً ذا ذكاء ودهاء، كان مرتاحاً تماماً لملء منصب مستشار لبابا ضعيف، كما فعل هيلد براند، حين شغل المنصب نفسه عدة سنوات تحت إشراف بابوات ضعفاء كانوا أقل مقدرة منه، وهكذا كان هيميرك يعتقد أن الحل والربط هو بيد المستشار وليس بيد البابا.

وعلى كل حال فقد كانت أيام هونوريوس معدودة، وبدأ الجميع يفكرون بجدية بالبديل، وانتخاب خلف له، وتعقدت الأمور في روما مرة ثانية، وأصبح الوضع متوتراً، إذ مع أن الانقسامات السالفة بين أحزاب إمبراطورية، وغير إمبراطورية قد ذهب ريحها بعد اتفاقية ورمس، ومع أن نفوذ دير كلوني قد تضاءل أيضاً بعد أن هبت رياح الإصلاح في البابوية، إذ طفا على السطح الآن ذلك النزاع بين القوى الثالثة، وهي قوى النبلاء للسيطرة على الشؤون السياسية والاقتصادية في المدينة نفسها، وكان النزاع شديداً وكانت

المعركة حامية الوطيس بين الأسر النبيلة القوية، أخص منها بالذكر أسرتي الفرانجيباني والبيرليوني، ووضح منذ البداية أن أسرة البيرليوني هي الأقوى، وذلك بسبب كثرة مشايعيها الذين كانت أكثريتهم تمت إليها بروابط القربى والمصاهرة أو بروابط المساعدات المادية والمبادلات المالية والاقتصادية، التي كانت موارد الأسرة التي لا تنضب قمينة بتأمينها، فقد كان جشع الرومان وحبهم للمال بشكل أسطوري لا يتيح للأغنياء أن يشتروا تأييد عامة الشعب فحسب، بل يتيح لهم تأمين قسم الولاء للبابا الجديد أيضاً، وقد أصبح من الأمور المألوفة والبديهية في ذلك الزمن أن مبلغ / 18.000/ مثقال من الذهب كانت تكفي لإجلاس بابا جديد، وكانت رشوة رجال الاكليروس الكبار منهم والصغار قضية مقبولة وطبيعية، فكل من يدفع أكثر يحصل على خلع أكبر، وأصبحت المنافسة بين آل فرانجيباني وآل بيرليوني، التي كانت تدور حول القضايا السياسية، وحول الإمبراطور الألماني، ما هي إلا قضية أموال ومادة، فقد أمن آل بيرليوني قضية تعيين حكام روما حتى أصبح من الغباء توقع تغييرات جديدة، وكانت قوتهم وسلطتهم ملموسة في المدينة، فلم يكونوا يملكون أقوى الأبراج المحصنة الخمسمائة في روما في القرن الثاني عشر بما فيه حصن سانت انجيلو ومسرح مارسيلوس فحسب، بل كانوا يملكون أحياء برمتها وبصورة خاصة حي تراستنفيري وضفة نهر التيبر اليسرى، التي كانت تحتلها المليشيا المسلحة، التي أصبحت أكثر قوة باقتناء الآلات الجديدة، الصالحة لاقتحام تحصينات العدو، وهكذا أصبح من الواضح أنه إذا انتخب خليفة هونوريوس من آل بيرليوني عند ذلك يجتمع الدين والدنيا في هذه الأسرة، وتصبح هذه الأسرة حاكمة روما دون منازع سواء في الكنيسة أو في المدينة.

ومع ذلك فقد كانت هنالك بعض العوامل التي كانت تتحدى آل بيرليوني، وأحدها أن هيمرك أراد أن يؤمن مرشحاً ذا أخلاق جيدة، وفي الوقت نفسه ضعيفاً يستطيع السيطرة عليه، لذلك تحالف مع آل فرانجيباني، ولكن العوامل والمعايير النفسية كانت أكثر أهمية، فعلى الرغم من أن آل بيرلوني كان باستطاعتهم شراء الناخبين، إلاّ أنهم لم يمتلكوا شعبية

كبيرة في المدينة، فقد كان النبلاء الآخرون لا يثقون بهم لأنهم عدّوهم من حديثي النعمة، وكرههم الشعب لأنهم كانوا يودون استعباده، ثم إن الإجماع على كرههم كان بسبب أصلهم اليهودي، فلم ينس أحد بعد أنهم متحولون يهود، ومن الغريب أنهم لم يحصلوا على الغفران بعد، وقد شعر خصوم آل بيرليوني بالخطر المحدق بهم، وشعروا أن عليهم أن يبادروا إلى العمل الفعال السريع، وخصوصاً لأن هذه الأسرة كان لديها مرشحها الطبيعي، بطرس الكاردينال، وكانت الأموال الكافية قد وزعت على الشعب لتأمين ترشيحه وانتخابه، وجعل ذلك أكيداً بل أكثر من أكيد، لهذا فلم يكن الوقت وقت الدبلوماسية، ولا زمن التفاصيل الإجرائية، بل كان من الواجب الآن اللجوء إلى الدهاء للتغلب على العدو، وبالنسبة لهيميرك فقد كان العدو هو بطرس بيرليوني.

ولكن الزمن لم يكن مواتياً، فها قد أطل شهر كانون الثاني، ومضى وهونوريوس لا يزال طريح الفراش منذ عيد الميلاد، وكان يعالج سكرات الموت، ولكنه لم يمت بعد، هذا وكانت قوانين الانتخابات التي وضعها نيقولا الثاني، والتي ما زالت سارية المفعول - ولو جزئياً - تتطلب عقد مجمع عند إشراف البابا على الموت لمناقشة أمر اختيار بابا جديد خليفة للبابا المريض، وكان من الواجب أن يحضر هذا المجمع الكرادلة وعدد من أعضاء الاكليروس الروماني، وممثلون عن الأسر النبيلة، وعند وفاة البابا كان على المجمع أن يقرر زمن ومكان الجنازة، وكان من النادر أن يدفن البابا في اليوم نفسه الذي يموت فيه، وكان الوقت الذي يمضي بين الموت والدفن ثلاثة أيام تقريباً، وفي الأحوال العادية يتم الانتخاب في الكنيسة التي يدفن فيها البابا الراحل، ولكن أثناء مرحلة الخصومات بين الأسر النبيلة المختلفة أصبح الانتخاب يتم في كنيسة محصنة قريبة من قلاع وتحصينات العائلة التي تسيطر على الموقف وترعى البابا، وتصبح قضية تسمية المرشح معقدة عندما لا يعين البابا له خليفة معروفاً، وفي بعض الأحيان عين عدة مرشحين في وقت واحد، وفي أثناء جلسة الانتخاب الرسمية التي تسمى «التحري» كان الكرادلة والاكليروس يتناقشون في فضائل

كل مرشح ومزاياه، وعندها يطلب عدد من الكرادلة المتخصصين بهذه الأمور طرح الأسماء للتصويت، وكان عدد الذين يجوز لهم التصويت في عام 1103م خمسين عضواً، وفي أول الأمر كان انتخاب المرشح محصوراً في الأساقفة الرئيسيين فقط، ولكن أنقصت سلطتهم في القرن الثاني عشر، واشترك الشمامسة ورؤساء الأديرة والقساوسة في الانتخاب، ومع ذلك فقد كانت الصفات والوزن اللاهوتي كالسن والخبرة والسمعة الطيبة للمرشح، لها تأثيرها الإيجابي، أو السلبي على انتخابه، وكثيراً ما كانت المؤثرات الخارجية والقوى المسلحة تداهم المجتمعين، وتتدخل الأسر النبيلة، ولكن في النهاية وبعد الجلسات الصاخبة، يتم انتخاب واحد من المرشحين، ويعمد هذا بعد ذلك إلى اختيار اسم جديد له، ويتم الاحتفال المهيب بارتداء البابا الجديد أثواب الحبر الأعظم وشاراته، ويتبع ذلك مراسيم الاحترام والتوقير التي يقوم بها الاكليروس والنبلاء، الذين كانوا يركعون أمام البابا، ويقبلون الخاتم البابوي، وهكذا يتوج البابا رسمياً، ولا يعد حبراً أعظم رسمياً إلاّ بعد هذه المراسيم، وفي بداية شهر شباط وقع البابا في غيبوبة تامة، وانتظر الجميع النهاية السريعة، المرتقبة، ولهذا أصبحت حيازة جسم البابا قضية ذات أهمية ما دام انتخاب خلفه لا يمكن أن يتم دون إتمام عملية الدفن، وكان من الواضح أنه إذا استطاع آل بيرليوني أن يختطفوا البابا، فإنهم سوف يفوزون بالسيطرة على الموقف، ونتيجة لذلك نُقل هونوريوس بسرعة من اللاتيران إلى دير القديس أندراوس الواقع قرب البرج الذي كان باستطاعة آل فرانجيباني أن يرسلوا المرتزقة منه في حالة الخطر، ولكن عندما انتقل البابا المريض وحوله الأساقفة الذين كانوا يحرسونه لاحظهم عامة الشعب – إذ كان لا يمكن لأي حادث مهما كان تافهاً أن يمر دون أن يلاحظ في روما، تلك المدينة التي تذاع بها الأقاويل وتنتشر بها الإشاعات كانتشار النار في الهشيم – وسرعان ما بدأ الناس يجتمعون أمام الدير يراقبون وينتظرون أي خبر، ولم يكد البابا يصل إلى مخدع نومه الجديد حتى دعا هيميرك إلى اجتماع للاكليروس لتسمية خلفٍ له، ولكن الكرادلة توقفوا وأحبطوا مسعاه، فقد كان

هنالك بعض الكرادلة مثل بيتروس أسقف بورتو الذي بقي مستقلاً ومحايداً، ولهذا عارض بشدة مثل هذا الخرق الفاضح لقوانين الانتخابات، التي تنص على عدم جواز تسمية الخلف قبل أن يسلم البابا الروح، ولكنه أخيراً خضع لرأي الأغلبية، ولكن عامة الشعب والرعاع لم يكونوا ليتركوا أي شيء للصدف، ولهذا قرر هيميرك أن يسلك سبيلاً آخر، فذهب إلى سرير البابا المحتضر لإقناعه بتسمية خلف له، إذ أن هذه الخطوة تسهل الأمور كثيراً، لأن رغبات البابا يجب أن تنفذ، وقد وصلت به الأمور إلى أن بدأ يقترح على البابا بعض الأسماء، ولكن البابا بلغ من الضعف كل مبلغ، فلم يستجب لأية دعوة أو أي اقتراح، وعندها عقد اجتماع آخر لمناقشة الوضع، ولكن الألوف المؤلفة من الشعب أفسدت الاجتماع عند المساء، وكانوا يحيطون بكنيسة القديس أندراوس، فقد سرت الإشاعات أن البابا قد توفي، وبدأ الشعب يطلب تعيين تاريخ الجنازة، وعندها شوهد منظر غريب عجيب فقد دب الذعر في قلب هيميرك، إذ كان عليه أن يثبت للرعاع الهائجين أن البابا لا يزال حياً، فحمل الأساقفة سرير البابا ووضعوه على النافذة، لكي يتمكن الشعب الهائج المترقب أن يراه، وأُدنيت المشاعل المضاءة من السرير من جميع جوانبه، وكان هونوريوس لا يكاد يعي ما يحدث حوله، وكانت عيناه المرهفتان نصف مغلقتين، ولكن الجلبة والضوء ساعدتا على فتحهما قليلاً، وقد حدق البابا بما حوله وهو مأخوذ بما يراه، ويشعر به من النشاط غير العادي، فنظر حوله بارتباك، فعمد هيميرك إلى ترتيب الوسائد حوله، وجلبت وسائد أخرى وضعت خلف ظهر البابا حتى أصبح الآن في وضع الجالس، وكان وجهه شاحباً واشتد شحوبة في ضوء المشاعل، قال هيميرك: «باركهم يا أبانا، إن الشعب يطلب بركاتك الرسولية»، فما استطاع البابا إلاّ أن يحرك شفتيه، فقد كان أضعف من أن يحرك ذراعيه، عندها عمد اثنان من الأساقفة إلى رفع ذراعيه إلى الأعلى، وهاهو البابا قد أصبح ألعوبة! رُفع الذراعان ثلاث مرات حتى يراهما الشعب الصاخب ويعلم أن هذه هي بركات البابا، وأن البابا لا يزال على قيد الحياة، وقد

استمر صخب الشعب مدة طويلة بعد أن أرجع البابا إلى مخدع نومه، وكانت هذه المحنة الشديدة كافية لتقصير أجله، لأنه أصبح أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فسقط في غيبوبة دامت نحو أسبوع، ثم لم يستيقظ بعد ذلك.

أصبحت كنيسة القديس أندراوس مسرحاً لنشاطات محمومة، فقد كان مجمع الكرادلة منقسماً على نفسه بشكل لا يدعو للأمل، وأما هيميرك فقد قرر وهو متأثر بطموحاته الشخصية وبإيعازات آل فرانجيباني، أن ينتخب مرشحه وهو غريغوريو باباريسكي، الذي كان الشماس الأكبر لكنيسة سانت أنجيلو، وكان رجلاً له شخصية قوية، وأخلاق قويمة، وكان قد خدم الكوريا عدة سنوات، كما كان واحداً من الذين اشتركوا في صياغة اتفاقية ورمس، وخدم كممثل للبابا ومندوب عنه في فرنسا، حيث اشترك في العمل مع الكاردينال بطرس بيرليوني الذي قُدر له أن يكون خصمه، ولم تكن هنالك أية شائبة أو شك في أخلاق باباريسكي الممتازة، وكان ينتمي لأسرة رومانية قديمة عريقة، ولم يكن رجلاً قوياً جداً ولا ملوناً، بل كان مستقيماً في أخلاقه، وكان هيميرك حريصاً على إتمام انتخاب هذا البابا قبل موت هونوريوس، وقد عُينت لجنة مؤلفة من ثمانية كرادلة ولكن سرعان ما تبين أن الأكثرية سوف تصوت لبطرس، وهكذا استمرت معركة «تاج البابا المثلث»، وقد نشبت هذه المعركة بمرارة وضراوة، فقد حاول كل فريق أن ينتصر، ولم يتورع عن استخدام أي خدعة ممكنة، ولم يتقيد أن يفكر بالوسائل المشروعة في سبيل إحراز النصر، وقد أدرك هيميرك أن مرشحه سوف ينتصر إذا تصرف أصدقاؤه وأنصاره بالسرعة الكلية، ودونما شفقة، أو تهيب، وأخيراً وعندما توفي هونوريوس أثناء الليلة الثالثة عشرة من شهر شباط، عندها اندفع هيميرك بسرعة إلى سريره، وأمر بنقل الجثة من جناح المعيشة في الدير، إلى كنيسة القديس أندراوس، وعمد إلى العمل بالسرعة التامة، وبالسرعة الكلية، ولما كانت قوانين الانتخاب تقضي بأنه يجب أن يدفن البابا قبل أن يُختار خلفه، لذلك حُضر قبر مؤقت بسرعة في الباحة قرب الكنيسة، وبعد تلاوة بعض

الصلوات السريعة، ووري الجسم الثرى، وبالوقت نفسه أقفلت أبواب الدير بإحكام، لمنع أي شخص من الخروج أو الدخول.

وأخفي نبأ وفاة هونوريوس قدر الإمكان، وعندما حاول بطرس بيرليوني، وصديقه الحميم الكاردينال جوناثاس أن يدخلا وينضما إلى اللجنة الثمانية التي كانا من أعضائها، مُنعا من الدخول إلى حيث كان من المفروض أن تعقد اللجنة جلساتها، وهكذا انتخب باباريسكي على يد أقلية من الهيئة المقدسة، وسمي هذا البابا إنوسنت الثاني، وتم الانتخاب في بهيم الليل، ولم يجرؤ أحد على التشكك أو فحص شرعية هذه الإجراءات، خوفاً من أن يُعلن بطلانها، وأثناء الأعوام الثمانية الصاخبة التي تلت حدثت مجادلات ومناقشات طويلة، لم يستطع حتى هيميرك أن يدعي أنه تصرف وفقاً للقوانين، ولكن آل فرانجيباني حاولوا أن يضفوا على انتخاب إنوسنت بعض سمات الشرعية، فجمعوا عدداً من المرتزقة لديهم في الصباح الباكر، ووضعت جثة هونوريوس على عربة موتى، ونقلت إلى البازليكا في اللاتيران، وكتب برناردي: «لقد بزغ ضوء النهار الآن، وجهز آل فرانجيباني - الذين كان هيميرك على تمام الاتصال بهم، والاتفاق معهم - هؤلاء القوم، وحفروا القبر بسرعة، وجروا البابا ودفنوه فيه، وهكذا أصبحوا الآن مستعدين للالتزام بالمراسيم التي تحيط عادة بانتخاب البابا، فلم يكن اللاتيران بعيداً عن كنيسة القديس أندراوس، ولهذا عمدوا إلى إعداده لهذه الغاية، فقاموا بنبش الجثة من القبر الجديد، وحملوها إلى اللاتيران، يتبعها البابا الجديد، وناخبوه من آل فرانجيباني، وبعض أفراد الشعب الذين تجمعوا بسرعة، ودخل البابا المتوفى والبابا الحي الكنيسة بالوقت نفسه، وأنزل هونوريوس إلى القبر بسرعة عظيمة، بينما ألبس إنوسنت الأثواب البابوية، وسُلم الشارات المعتادة، ثم دخل في الحركات الاحتفالية المعهودة والمعتادة، إلى البازليكا، ثم إلى القصر، وهكذا أصبح هو البابا».

بينما كانت هذه الأمور لم تتضح بعد، وقفت غالبية الاكليروس ينتظرون في كنيسة القديس ماركوس، ولم يكن لديهم أي علم بوفاة البابا، أو بانتخاب إنوسنت، والحقيقة

أن كل تلك الأمور تمت خلسة، وبشكل مكتوم، وكانت قلة من الاكليروس الكبار في حاشية هيميرك، لذلك لم يلاحظ أحد تغيبهم، وكان هنالك عدد كبير من الاكليروس في روما في ذلك الوقت، فكان هنالك ستة أساقفة كرادلة، وتسعة عشر أسقفاً، وأربعة عشر شماساً كبيراً، أي تسعة وثلاثون بمجموعهم، وكان معظمهم في كنيسة القديس مرقس عندما وصل إليهم نبأ انتخاب إنوسنت، فافتتحوا جلستهم الرسمية عند الظهر، وقد ساءتهم تصرفات هيميرك المخزية بتجاوزه القانون الكنسي، وبعدم مراعاته لأحكام الانتخاب، وقرروا انتخاب بابا جديد حسب القوانين المرعية، ولكن الغريب في الأمر أنهم نسوا أهم نقطة قانونية في القضية، فلم يلغوا ولم يبطلوا رسمياً انتخاب إنوسنت، مع أنه كانت لديهم السلطة والأصوات الكافية لتنفيذ هذا الإلغاء، ولكنهم تغاضوا عن هذا الموضوع، ولو قاموا بهذا العمل لأصبح أناكلت البابا الحقيقي، دون منازع ولاجتنبوا ذلك الانقسام الذي نتج، وتلا تلك الأحداث، ولكن بدلاً من ذلك باشروا بالانتخاب، وكان أول من وقف هو الكاردينال بطرس بيرليوني الذي اقترح مرشحاً جديداً هو أسقف بورتو، ولاشك أن هذا كان أمراً مدبراً لإضفاء الشرعية والاحترام على الإجراءات المتخذة، فقد كان هذا المرشح طاعناً في السن، ورفض الترشيح كما كان منتظراً، ولكن هذه المناورة سببت ميل الاكليروس المحافظين إلى جانب انتخاب بطرس بيرليوني، إذ أن هذا الأسقف نفسه الذي ظل مخلصاً لأناكلت حتى تلك النهاية المريرة، اقترح هذا الأسقف اسم بطرس بيرليوني، فنال بطرس إجماع تسعة وعشرين فرداً من أفراد الاكليروس يتسلسلون في المراتب من كبار الكرادلة وكبار الشمامسة إلى كبار القساوسة، وعندها اتخذ بطرس اسمه الجديد وهو أناكلت الثاني، وألبس باحتفال مهيب الرداء الأرجواني (ولكن وا أسفاه، لقد كان الخاتم والصليب بحوزة إنوسنت ولذا استعملت أدوات بديلة).

ومن نافلة القول أن نذكر أن مراسيم انتخاب كلا البابوين إنوسنت وأناكلت كانت بسيطة دون تلك الأبهة المعتادة، والحقيقة أنه لم يكن لأي من المعسكرين سبب لإبداء فرحة

وغبطة ، فمثلاً إنوسنت ، الذي تقدم زمنياً في التنصيب ، كان انتخابه غير شرعي ، لذا لم يكن وضعه سليماً أبداً ، فقد كانت معظم طبقات الشعب في روما ضده ، فلم يحضر مراسيم التنصيب إلاّ آل فرانجيباني وأصدقاؤهم المخلصين مع عائلة إنوسنت ، ولم تقم أية وليمة بتلك المناسبة ، ولم تجر أية احتفالات في المدينة ، وقد نصحهم إنوسنت نفسه بالتريث ، وأخذ جانب الحذر تحت تلك الظروف ، وبعد أن أجلس على العرش البابوي ، أخذ إلى دير بلاديوم في ظل قلعة من قلاع آل فرانجيباني ، حيث شعر بالأمان أكثر من وجوده في روما نفسها ، وكان دفن البابا المتوفى بتلك السرعة ، وتلك الإهانات التي تعرضت لها جثته في عملية الدفن الثانية ، والسرعة التي اتخذت في الاحتفال في اللاتيران ، كل هذه الإجراءات كبلت ضمائر كل الذين اشتركوا في تنصيب البابا إنوسنت ، وهو ضحية دهاء تفكير هيميرك ، ويتفق الكثيرون في القول أن إنوسنت لم يكن ذا قامة مهيبة ، ولكن لا ينكر أي إنسان أنه كان شخصاً له كرامته الشخصية ، وأن انسحابه إلى دير محصن دليل كافٍ على وجود تلك الضمائر الفاسدة ، وحتى أعداء أناكلت اعترفوا بالشوائب التي علقت بانتخاب إنوسنت : «إذا قارنا الانتخابات التي جرت في دير القديس أندراوس بتلك التي جرت في كنيسة القديس مرقس (أي انتخاب أناكلت) لا يسعنا إلاّ أن نعترف أن انتخاب ذلك الحقير بطرس ليونيس كانت أقرب إلى القانون الكنسي من رفع ذلك الشماس الكبير إلى سدة البابوية في كنيسة القديس أنجيلو (أي إنوسنت) ، فالاكليروس الذين انتخبوا أناكلت كانوا من أكبر الاكليروس سناً وتجربة ، ومن الرجال المجربين الذين خدموا الكرسي البابوي المقدس» .

وبينما نرى اختلافاً قليلاً بالنسبة لأخلاق إنوسنت وشخصيته ، إلاّ أننا نلاحظ أن الأفكار والآراء حول أناكلت تختلف اختلافاً بيّناً وعظيماً ، فقليل من الناس يذكرونه دون نوبة انفعال أو غضب شديد لأنه كان يعدّ منذ نعومة أظفاره شخصية مثيرة للخلاف والجدل ، وقد كنا ذكرنا قبلاً عن ملامح وجهه وأساريره اليهودية ، وكان يبدو أسمر اللون مع شيء من الشحوب كان الجميع يستاءون ويمتعضون من مظهره اليهودي ، وهو لم يزل

طالباً في باريس، وبعد أن أصبح مندوباً بابوياً في فرنسا وإنكلترا، لا بل حتى في ذلك الوقت كانوا يدعونه «عدو المسيح»، وهذا تعبير مسيحي مهذب يقصد به «ذلك اليهودي الملعون»، وكتب غريغوري: «لقد تذكر العالم فجأة باحتقار وازدراء أصل آل بيرليوني اليهودي فالسحنة اليهودية لأي بابا لا يجوز أن تعدّ شيئاً مؤذياً أو ضاراً، خصوصاً إذا تذكرنا أن الرسول بطرس، ويسوع نفسه لابد وأنهم كانوا أشبه باليهود من أناكلت هذا».

لم تقتصر تلك الانتقادات على هيئة ومظهر أناكلت فحسب بل تعدت إلى أخلاقه أيضاً، فألصقت به كل تهمة وكل جريمة اقترفت تحت الشمس، فقد كره كل الكراهية لأنه كان أولاً سليل أسرة يهودية، على الرغم من أن هذه الأسرة قد تحولت إلى المسيحية، وعرفت بالتقوى، ولكنها عرفت أيضاً بمقدرتها المادية، وقوتها المعنوية، ومن جهة أخرى عدّ أنه لم يكن يَمُتّ إلى الرهبنة بأية صلة، ذلك لأن إقامته القصيرة في دير كلوني، كانت نوعاً من التَّنفجيَّة[1]، ولم تكن دلالة على تقبله الخالص للقواعد والقوانين الخاصة بالرهبنة، فقد كان دير كلوني هو «ايتون»[2] القرون الوسطى، فقد استطاع آل بيرليوني بما لهم من قدرة مالية أن يرسلوا ولدهم ليتثقف في بلاط ملك فرنسا، وفي قاعات الدراسة التي كان يعلّم فيها أبيلارد، فضلاً عن الجو الروحاني الأرستقراطي المتوفر في دير كلوني، ومجمل القول أنه لم يكن زاهداً ولا متنسكاً، «والحقيقة أن أناكلت كان رجلاً رائعاً بارزاً (إذا قورن بانوسنت) فقد تعلّم في باريس وكان شديد الطموح، فصيحاً، ذكياً سريع البديهة فكهاً، ورغم تلقنه العلم ونشأته الأولى في دير كلوني، لم يكن يخلو من تذوق للرفاهية، وذلك بسبب الثروة التي أحرزها أجداده وأسلافه الأذكياء، وكان يمثل نموذج البابا الأرستقراطي»، ولكن هذا التقويم تقويم حديث، فلم يكن معاصروه كرماء ليصفوه بمثل هذه الأوصاف، فقد دعاه هوبرت لوكا: «الجشع الطموح»، ووصفه (بطرس البيزوتي) بقوله: «ذلك الطائر آكل الجيف الذي أتخمه أو أغرقه الجسد»، وذهب أسقف مانتو إلى أبعد من ذلك فاتهمه

(1) التنفجية هي سلوك المقلد لمن يعدهم أرقى منه، والمعجب بهم بتملك أو الساعي إلى صحبتهم، وكذلك المتكبر على من يعدّهم أدنى منه ويسمى الواحد من هؤلاء نفاجاً.

(2) كلية ايتون في إنكلترا لا ينتسب إليها إلا أبناء اللوردات الأغنياء.

باستعمال «العنف في التصدي للنساء، لا بل حتى الراهبات، وتلك الشهوانية الجسدية التي أوصلته إلى غشيان المحارم». أما هيميركِ فدعـاه «بالرجل المولـع بالجشـع والمحـب للتمثيليات الهزلية والممثلين، وسارق الكنيسة، والظالم لرجال الكنيسة الذي لا يرحم، ولا يتقي الله»، أما برنارد كليرفو زعيم الحركة النضالية ضده، فقد كان معتدلاً في أول الأمر عندما تقيـد بهذا التعليق: «إن أناكلت هو الخراب المقيت، والعار الذي يتربع على المكان المقدس، وقد أشعل النار وأحرق مقدسات الرب في سبيل الوصول إلى غايته»، وطبقاً لما قاله القديس برنارد: «إذا كان ما يقوله الناس عنه حقاً، فهو لا يستحق أن يكون أصغر قسيس في أصغر قرية، وإذا لم يكن ما يقولوه صحيحاً فيجب علينا أن نُصِر بـألا يكـون رأس الكنيسة رجلاً لا عيب ولا شائبة فيه، بل يجب أن يتمتع بسمعة طيبة لا غبار عليها»، وكان هذا التعليق غريباً حقاً: فلـو كانت سمعته مؤسسة على الإشاعات، وتشويه الحقائق وتحريفها، فقد كان واجب رجال الكنيسة أن يكشفوا الحقائق، ولكن نقاط الجدل ضد أناكلت كانت عبارة عن ستار دخاني، وكانت هنالك «نقطة واحدة لم تذع بشكل علني»، وهذا رأي برنـارد الـذي عـدّ هـذه النقطة عائقاً ومانعاً ألا وهي «أصله اليهودي».

ما من أحد يعلم إذا كان أي من هذه الادعاءات الأخلاقيـة قـد حملـت علـى محمـل الجد والحق، لأننـا لا نجد أي مؤرخ معـاصر قـد سـجل تلـك الحـوادث، دونما انحيـاز أو تحامل، فبعد انقسام عام 1130م غدا العالم المسيحي منقسماً بشكلٍ مزرٍ، فـأصبح فـي كـل مكان فـي العـالم المسيحي أسقفان ورئيسـا شمامسة، ورئيسـا ديـر، واحـد يمثـل إنوسـنت والآخر يمثل أناكلت، ولم يسبق أن حدث مثيل لـهذه الحالـة، ولكـن تبقـى الحقيقـة الراهنـة وهي أن أناكلت لم ينتخب انتخاباً صحيحاً للسدة البابوية، فبالنسبة لعدوه اللـدود برنـارد، كان هذا الانتخاب الذي حدث عند الظـهر يذكـره «بخيانـة اليـهود الذيـن فـي تلـك السـاعة نفسها دقوا المسامير في جسم يسوع المسيح وصلبوه» فالتعريض والفخـر فـي هـذه الملاحظة واضح جداً فسوف تعاد وتكرر تلك الملاحظات المعادية لليهود والموجهة ضد أنـاكلت طيلـة السنوات المريرة القادمة.

ولما كانت معظم الكنائس الرومانية تحت سيطرة آل فرانجيباني، لذلك كان على آل بيرليوني أن يستولوا عليها بالقوة، وإلاّ فلا، وقد قام إخوة أناكلت وهم: ليو، وجوردان، ويوحنا، وجايدو الذين دبروا أمر الانتخابات بعناية تامة، بتوزيع النقود حين اللزوم، والمفاوضات حين اللزوم، وقطع الوعود والعهود لمصلحة أخيهم، كما وضع هؤلاء القوة العسكرية التي امتلكتها عائلة بيرليوني بأكملها تحت تصرف أناكلت، وهكذا استولوا على كنيسة القديس بطرس (بعضهم يقول بعد خسارة عدة أرواح)، وكذلك اللاتيران، وقد كان أناكلت مصراً أن يحدث تتويجه في كنيسة القديس بطرس، وأما الاحتفالات الأخرى فتجرى في اللاتيران طبقاً للعادات والتقاليد والقانون الكنسي، وقد علم أن تتويج إنوسنت في كنيسة ماريا نوفا لم يكن يمثل إلاّ مراسيم تولي المنصب في أسقفية روما، بينما التتويج في كنيسة القديس بطرس تمثل تولي المناصب والولاية على البابوية المسكونية.

وبما أن الكنائس اللازمة لتنصيب البابوات قد استولي عليها بالقوة، لذلك نرى برنارد كليرفو يقول فيما بعد: «إنه لم يستطع أن يحصل على منصبه، ولقبه الرفيع بواسطة حياته الطيبة، أو فضائله، بل إنه اغتصب المنصب اغتصاباً بالقوة أحياناً، أو بالنار أو بالرشوات»، ولكن يمكننا أن نكيل التهم نفسها ضد الكثير من البابوات الآخرين، الذين لم نرَ بينهم إلاّ القلائل من الذين كانوا يكرهون استعمال القوة في أوائل العصور الوسطى، وقد اعتمد بعض كبار البابوات استعمال القوة والقسر، لا بل حتى المعارك الدموية، وهكذا أصبح هؤلاء البابوات أكثر شبهاً بالقادة العسكريين الحقيقيين الذين يركبون أمام الجيوش المسلحة المصطفة استعداداً للمعركة، فبينما نرى أناكلت يترك كل هذه الأمور لآله، لذلك فمن الصعب أن ندافع عن أعماله هذه بالمقاييس الحديثة المألوفة في هذه الأيام، ومع ذلك فيبدو أنه ليس من الإنصاف مهاجمته، بل إن ذلك يبدو نوعاً من الرياء والتظاهر بالغيرة على الدين، ما دمنا نرى خصمه إنوسنت مختبئاً يحميه ويحرسه جنود آل فرانجيباني المرتزقة، هذا وقد قيل أن أناكلت دعي لرؤية بعض الخرائب والأطلال في

فيزلاي وبيرغندي في إحدى سفراته عندما كان مندوباً عن البابا، وأنه عبّر حينها عن ميله وولعه برؤية الخرائب والأطلال، ويقال أنه تفوه بهذه الكلمات: «إنني أرغب في رؤية هذه الخرائب لأنني أبتهج بتخريب أي شيء عظيم، فلقد تنبأ لي بعضهم أنني سأكون سبباً في تخريب هذا العالم»، ولكن يظهر أن هذه الأفكار ملفقة ومشكوك بصحتها، والحقيقة أن الملاحظة الوحيدة السليمة التي قيلت دون تحيز أو تحامل، قد قالها الأسقف الحكيم العجوز بورتو، الذي حذر الاكليروس من التحريف بقوله: «لقد عاش كل من أناكلت وإنوسنت في حاضري وحاضركم، وحاضر الكنيسة، وقد كانت حياتهما تتسم بالحكمة والشرف، وقد أنجزا واجباتهما بشق الأنفس، فلا يليق بكم أن تذكروهما وتتكلموا عنهما كلاماً كريهاً مشوباً بالتأنيب، لأن ما قيل عنهما مبني على الإشاعات، والكفر».

تعين يوم الاحتفال بتتويج أناكلت وتوليه العرش البابوي في اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط، وقد كان هذا اليوم يوماً مشهوداً من أيام المدينة، عمت به البهجة أرجاءها، ولم تتزين روما منذ عهد بعيد كما تزينت في ذلك اليوم، إذ أنها كانت مناسبة لإظهار أعظم انتصار وتفوق حققه آل بيرليوني فقد وصلوا إلى ما كانوا يحلمون به، وتابعوه في الخفاء بإصرار وعناد، فها هو أحد أحفاد باروخ اليهودي، ومن نسله المباشر، والذي يحكم آل بيرليوني، ذلك الكردينال الذي ركع إلى جانب سرير والده المحتضر، واستلم بركته وبركة إبراهيم وإسحق ويعقوب، هاهو بطرس نفسه الذي كان يُدعى: (الرجل الآتي من الغيتو اليهودي)، يتبوأ عرش البابوية، لقد ملأت مظاهر الزينة والفرح كل مكان، ووزعت الخمور والأموال والأطعمة بكرم وسخاء على الفقراء والمحتاجين، وقد اصطف الاكليروس من ذوي المراتب الرفيعة بشكل جذاب، وانتدب أسقف بورتو العجوز الذي كان قد رشح وسمى بطرس في منصب الحبر الأعظم في تلك الجلسة الدرامية للمجمع الكنسي قبل بضعة أسابيع للقيام بإدارة مراسم تنصيب البابا الجديد، وذلك بمساعدة أساقفة أتوا من عدة أماكن من البلاد، ولم يكن هنالك أي شك بشرعية هذا العمل، وهذا الاحتفال، فقد حُسب حساب جميع التفاصيل بتدقيق وبوحي من

الضمائر، وقد كانت التراتيل الدينية والأناشيد تتلى طيلة الوقت، ولدى وصول الركب إلى الكنيسة، رفع بطرس بيرليوني إلى عرش البابوية، ووضع التاج المثلث الذهبي فوق رأسه، بينما كان هتاف الجمهور وتصفيقه يشق عنان السماء، وقد تليت جميع الصلوات حسب المراسيم والعادات القديمة المتبعة بكل دقة وإتقان، وهكذا نصب أناكلت رسمياً، وكما يجب، واستعد الموكب للسير في تلك المسيرة الطويلة إلى اللاتيران حيث يستلم البابا الكنيسة البابوية، والقصر العظيم، وقد تجمهرت جماهير الشعب بشكل صفوف طويلة في الشوارع، ووقفت جماعات المثقفين والعلماء والمتنورين في أماكن محددة لأداء فروض الاحترام والخضوع المعتادة للبابا الجديد، ومن الممتع أن نعلم ماذا كان يدور بخلد المندوبين اليهود وهم ينتظرون في أماكنهم المخصصة لهم لكي يقدموا ملف التوراة لذلك البابا الذي خرج من الحي اليهودي، ولقد خطر لغريغوري أن يورد هذا الكلام: «وحالما حيت الجماهير الهادرة البابا الجديد، نظرنا إلى المندوبين اليهود، الذين كانوا ينتظرون قرب قصر كروماتيوس الفخم، يقودهم الرباني، وهم يحملون ملف التوراة، وكنا نتصور كم كان سرورهم عظيماً في هذه المناسبة، فلم يصدف في أي تاريخ من تاريخهم أن حيَّوا، واحتفلوا بأي بابا آخر بأناشيد مخلصة صادرة من القلب، كما احتفلوا في ذلك اليوم ولكن ذلك الحب كان مؤذياً على أي حال».

وفي اللاتيران أقيمت الاحتفالات العادية المألوفة: قسم تولي المنصب، وتوزيع النقود على الشعب كتثبيت لقسم الفقر، (إذا صدرت هذه الكلمات عن شخص من آل بيرليوني فهي كلمات جوفاء)، ثم الجلوس الرمزي التقليدي على عرش الرخام السماقي اللون، والصلاة الصامتة في قدس الأقداس، وحفلة الولاء المهيبة التي يشترك بها الاكليروس والنبلاء في تقديم فروض الطاعة للبابا الجديد، وكان بين الرجال الذين ركعوا أمام الباب إخوته الأربعة الذين عملوا الكثير لتحقيق حلم آل بيرليوني القديم، وأخيراً وليس آخراً أتت الوليمة التي كانت أروع ما تكون عليه وليمة في مثل هذه المناسبة، ولكن احتفظ بالعادات القديمة، فقد جلس أناكلت وحده على مائدة العيد الفخمة في عزلة تامة،

بينما قام بخدمته النبلاء، وقدم له كل واحد منهم لوناً من ألوان الطعام، وقد شارك إخوته أيضاً في هذا العمل.

ومع ذلك فلم يكن بالإمكان إخفاء الحقيقة المرة وهي أن هناك بابوين قد انتخبا في روما على الرغم من سحر وروعة المناسبة والاحتفالات، فقد كان إنوسنت لا يزال في روما آل فرانجيباني، الذين اضطروا بأن يعترفوا بأناكلت بعد شهرين، ولكنه رحل إلى بيزا عندما تحقق أنه لا يستطيع فعل شيء، وهو رهن الحفظ والحماية، ولكن لم يكن رحيله عن روما يعني أنه تنازل عن منصبه، بل على العكس كان ذلك إيذاناً ببداية العمل، وقد كان أناكلت ذكياً فلم يستخف بالمصاعب الكثيرة الآتية، ولاشك أنه توقع أن يصادف في السنوات القادمة كل ما كانت تحدثه به نفسه، من موجبات الخشية والخوف، بعد اتفاقية ورمس أصبح الاعتراف بالبابا المنتخب من قبل السلطة الزمنية أمراً طبيعياً، ولكن انقسام عام 1130م سبب وقوع مشكلة معقدة، فأي من البابوين هو البابا الحقيقي، الذي يجب أن يعترف به الملوك والحكام، وكذلك المسيحية بأسرها يا ترى؟ فقد نشط إنوسنت وسافر من بيزا إلى فرنسا، حيث كان يأمل أن يربح التأييد المعنوي الروحي لدير كلوني، وكذلك تأييد ملك فرنسا، أما أناكلت فبدأ يراسل الملوك والاكليروس ويوجه لهم كتباً مستعجلة، وفي كتابه إلى الملك الألماني لوثر وصف انتخابه بهذه الكلمات: «إن إخواننا الكرادلة الذين حرموا من حنان وعطف راعٍ لأبرشيتهم، بعد وفاة هونوريوس قد انتخبونا كحبر أعظم بإجماع منقطع النظير، من قِبل الاكليروس، وعامة الشعب»، كانت معظم الرسائل الثماني والثلاثين التي كتبها أناكلت تعالج قضية الانقسام، فلم يكن لديه متسع من الوقت لمعالجة المسائل الأخرى، ولم يتخذ أية قرارات كنسية هامة، ولم يصدر أية أوامر بابوية رسمية، ولم يدع لاجتماع أي مجمع مسكوني، وهكذا فقد حرم هذا الانقسام الكنيسة من خدمات حبر أعظم كان مستعداً للقيام بالواجبات الملقاة على عاتقه، ذلك الحبر الذي تتلمذ على أعظم علماء اللاهوت والفلاسفة، كان مضطراً أن يكرس جهوده خلال سنوات حكمه الثمانية للمشاكل السياسية، لا بل حتى العسكرية في محاولة يائسة

لإقناع العالم المسيحي أنه هو البابا الرسمي الوحيد المنتخب، ولكن الحكام لم يستجيبوا لا لكتبه التي أرسلها لهم، ولا لتدخلات المبعوثين البابويين، فقد سادت مؤامرة من الصمت عملت على وضع أناكلت في عزلة تامة منذ البداية، ولكن روما كانت معه، وهذا أمر لاشك فيه، وهكذا كانت بقية إيطاليا، وأما ميلانو فقد عمل على استرضائها، وذلك بتثبيت امتيازاتها وتفوقها المميز، وهكذا ظلت هذه المدينة القوية مع جميع الاكليروس فيها وفية موالية له حتى النهاية، وفي فرنسا حيث كان إنوسنت متفوقاً، وجد أناكلت له أصدقاء يعتمد عليهم مثل هيلد بيرت رئيس أساقفة تور، وكذلك جيرارد صاحب أنجوليم، وهو واحد من الشخصيات الروحانية في ذلك الزمن، وقد كان مقتنعاً أن أناكلت هو البابا الحقيقي، وقد عمل ممثلاً له بحماس وحكمة في وضع ميؤوس منه، وأما الحكام الزمنيون الذين أيدوا أناكلت فكان منهم وليم صاحب أكويتانيا، وروجر دوق صقلية الذي كان يطمح أن يكون أول ملك لصقلية، والذي سوف يصبح من أقوى حماة أناكلت، ثم هنالك الكنائس الشرقية، فقد كتب أناكلت عام 1130م يقول: «إن جميع الكنائس الشرقية بما فيها كنيسة القدس، وكنيسة أنطاكية، والقسطنطينية كلها معنا، ولها علاقات متبادلة ودية معنا».

ولكن كان من الواضح أن القرار الحاسم لم يكن بيد الكنائس الشرقية، بل بيد فرنسا، إذ أن ملكها لويس السادس أرسل مندوبين ملكيين لاستقبال إنوسنت عند وصوله إلى آرلس، ولكنه امتنع عن الاعتراف به رسمياً، والأمر الذي أزعج بل أوجع أناكلت هو زيارة إنوسنت لدير كلوني، حيث رحب به بطرس رئيس الدير بحرارة، فقد نسي هذا أن أناكلت كان تلميذاً من قبل في هذا الدير فضلاً عن أنه كان راهباً فيه، وصديقاً حميماً للاكليروس هناك، ولكن الحقيقة أن دير كلوني لم يعد هو مركز الثقل، ولم تعد له تلك القوة التي تؤهله ليحتل المركز الحاسم في القضايا الروحية، إذ أن القوة الفعلية قد انتقلت إلى دير كليرفو حيث رئيسه برنارد الراهب الأبيض الذي كان قابعاً في عزلته وتزمته وتقشفه وصرامته، لقد كان برنارد وحده هو القادر على أن يقرر مصير البابوية، فكان

قراره مقبولاً لدى الملوك والاكليروس معاً، وما دام أنه لم يتكلم بعد، لذا لن يجبره أحد أن يتحيز لأي من البابوين.

إن خروج هذا الزاهد المتنسك من عزلته إلى عالم الشؤون الدنيوية كان حدثاً مرموقاً فوق العادة، فقبل حدوث الانقسام كان برنارد يعدّ راهباً محترماً، مؤمناً، لا يساوم ولا يهادن في المثل الرهبانية العليا في التزام الفقر، وإنكار الذات، فهو اللاهوتي المستقيم الذي ينكر على العقل أن يكون له دور في إقليم الإيمان، وكان مبشراً متحمساً يعتقد أن هذا العالم ليس عالمه لأن هذا العالم ليس مؤمناً، وكان يعتقد أنه لا يجوز للمسيحية أن تفرط بذرة واحدة من التعاليم القديمة، ابتداء من موعظة الجبل إلى لاهوت القديس بولص، وعندما كان ينظر حوله ليرى العالم المسيحي المعاصر له، لم يجد سوى الخيانة والتنكر لمبادئ الإيمان فالخونة موجودون ضمن الاكليروس سواء ذوي المناصب العليا أم الدنيا، كما أنهم موجودون في البابوية نفسها، لا بل حتى في الأديرة، وكان كل شيء ينظر إليه يبدو انحرافاً عن المثل العليا المسيحية النقية الخالصة، ويبدو كريهاً بغيضاً بالنسبة إليه، وحتى دير كلوني نفسه لم يعد ملبياً لمقاييسه العليا المميزة، فالبابوية قد اختارت الحرير والديباج، بدلاً من ملابس بطرس وبولص البسيطة، واختارت التاج المثلث الذهبي بدلاً من قبعة الأحبار البسيطة، والبابا نفسه أصبح حاكماً تحيط به تلك البطانة من الوزراء، ورجال البلاط، والمبعوثين البابويين، وجميع أجهزة الملوك الدبلوماسية، وهذه خيانة أخرى، فقد تناسى البابوات العادات الرسولية القديمة، فلم يعد البابا راعي القطيع الذي يحمل عصاه للحفاظ على قطيعه، ليكون مثلاً وقدوة في التقى والورع، كلا، إن هذا العالم بأجمعه سواء أكان دينياً أم دنيوياً، ليس هو عالم برنارد.

ومع ذلك فقد شعر برنارد وهو في هذا الوضع من العزلة والتزمت، وحتى البؤس، أنه هو ضمير المسيحية الحقيقية الصحيحة، فهو المقياس المعتمد الذي يقاس ويقدر بموجبه الجميع، فكلما تعرضت الأسس الجوهرية للمعتقدات المسيحية للخطر نراه مستعداً لحمايتها، فها هو الشيطان نفسه قد ظهر في باريس بشخص بطرس أبيلارد الذي هرع

الألوف من الطلاب للانضمام إليه، إذ كان هذا عـاملاً مـن عوامـل التحـدي لبرنـارد الـذي وجد أن من واجبه أن يهزم هذا الشيطان، وها قد مضى عام 1130م ولـم ينجـح، بـل كـان عليه أن يناضل عقداً من السنين حتى أسكته وأخضعه، وهكذا فقد ظـل أبيـلارد خطـراً فـي هذا العالم الجديد الذي بدأ به استيقاظ العقل والشكوك، فانقسام عـام 1130م لـم يكـن إلاّ مظهراً من مظاهر المعركة التي خاضها برنارد ضـد أبيـلارد، فأنـاكلت، هـو تلميـذ أبيـلارد، وكان يشبهه تمام الشبه حيث كان مثله متوقد الذهن، مستنفراً دائماً، بارعـاً، سـريع الخـاطر إلى درجة العبث والطيش والاستهتار، متحيزاً للحكمة والأقـوال المأثورة، كثير الملـل مـن السذاجة والمقـدرة الضئيلـة، لا يصبر علـى الفظاظـة أو الغبـاء، متكبراً، متغطرسـاً مولعـاً بالكماليات والرفاهية، التي كانت بمتناول يده، نظراً للثروة التي ورثها من أبيه، أمـا برنـارد فكان يكره كل هذه الصفات إطلاقاً، فقد كان هو نفسه نبيلاً مولداً ومحتداً، إذ كـان يعيـش أولاً في قصر والده ولكنه بدأ يحرم نفسه عمـداً وبشـكل مؤلـم مـن جميـع مظـاهر الرفاهيـة التي امتازت بها الحياة الارسـتقراطية، فلـم يكـن نموذجـاً أو عينـة لصفـة واحـدة، وهـذا مـا جعله أكثر انفعالية واتقاداً، وسرعة غضب إذ كان يناضل في جبهتين، يناضل الشيطان فـي الخارج، وأيضـاً يناضلـه داخـل نفسـه، فقـد أصبحـت الـثروة بالنسـبة إليـه خطيئـة، وهــذا أناكلت أمامه ثري كبير، وقد قيل أن إنوسنت قد أثر على برنـارد تـأثيراً عميقـاً لـدى زيارتـه لدير كليرفو، عندما وصف له ثروة آل بيرليوني، وتوزيعهم الذهب علـى الشـعب، وعلـى الاكليروس، وتلك الثروات التي كان مصدرها تعامل اليهود بالربا الفـاحش، وهكـذا فقـد ولج أناكلت باب البابوية من خلال الرشوة، ومع أنه لم يشتر هذا المنصـب بشـكل مباشـر، إلاّ أن آل بيرليوني قـد دفعـوا ثمـن البابويـة للمئـات مـن النـاس مـن مؤيديـهم، وكمـا أن آل بيرليوني هؤلاء قد حصلوا علـى أموالـهم بطـرق غـير مشـروعة، لذلـك يمكننـا أن نقـول أن أنـاكلت قـد حصـل علـى البابويـة بطريـق غـير مشـروع أيضـاً، فالقضيـة تتعلـق بالشـخص المنتخب أكثر مما تتعلق بالانتخابات نفسها، والحقيقة أنه حتى الأشخاص الذين لـم يعـترفوا رسـمياً أن انتخـاب أنـاكلت كـان أكـثر شـرعية مـن انتخـاب إنوسـنت، هـؤلاء يعـترفون أن

شرعية هذا الانتخاب مساوية على الأقل لانتخاب إنوسنت، ولم يكن هنالك أي نقطة قانونية للخلاف، فقد كان اهتمام برنارد ليس في شرعية العمل بل في أخلاقيته، فقد أكد إنوسنت في كل رسالة كتبها هو وأنصاره اتهام أناكلت بأبشع الجرائم وأشنعها، بينما كان أناكلت من جهة أخرى يتكلم عن خصمه بلهجة مؤدبة محترمة، ولم يهاجمه شخصياً أبداً، إذ لم يكن هنالك أية حاجة لهذا العمل، ولا مندوحة لنا عن القول إنصافاً لهذا الرجل أناكلت أنه لم يتبع أبداً أسلوب إنوسنت ولم يرد عليه بلغته في حملة الذم، وتشويه السمعة التي تعرض لها، أما برنارد فكان همه مقاومة عالم الخطيئة وكان ميدان معركته هو هذا العالم، لذلك أصغى باهتمام لما يسردونه من جرائم أناكلت المزعومة، هذا ولم يتورع إنوسنت عن اتهام خصمه بتدبير مؤامرة لاغتياله أيضاً.

ولكن انعدام الأخلاقية، ثم التبعية لأبيلارد، ثم الثروة، لم تكن كل هذه الأمور هي الاتهامات الحقيقية الموجهة لأناكلت ففي عدة وثائق نجد برنارد يشير بصراحة إلى الجريمة الكبرى، وهي أصل أناكلت اليهودي، ففي اجتماع عُقد في سالرنو التفت برنارد إلى بطرس أسقف بيزا، وتفوه بهذه الملاحظات: «إني أعلم أنك رجل عاقل، وعالم يا بطرس، أتمنى لو كثر عدد الفئات من الناس الأفاضل والعقلاء الذين ينالهم قسط من خدماتك، وأتمنى لو أن قضية أكثر عدلاً وإسعاداً قد نالت تأييدك ودفاعك، عندها والحق يقال، لن يستطيع أي فصيح أن يصمد أمام جدالك وآرائك المعقولة، ولكننا نرى اليوم أن المحبة تجبرنا أن نتكلم، وذلك لأن رداء الرب الذي لم يستطع أي يهودي، أو أي كافر أن يمزقه، نرى الآن هذا الرداء يتعرض للتمزق، إرباً إرباً، على يد بطرس ليونيس، بموافقة سيده اليهودي، واعلم يا أخي أن هنالك إيمان واحد، ورب واحد، ومعمودية واحدة، فلا يُعلم عن وجود ربين، ولا إيمانين، ولا معموديتين، وإذا رجعنا إلى التاريخ القديم، إلى أيام الطوفان، فقد كان هنالك فلْكٌ واحد، وفي هذا الفُلْك نجت ثمانية أرواح من الطوفان، وأما الباقون فقد هلكوا وليس هنالك من شك أن هذا الفُلْك هو رمز للكنيسة، ولكن حدث بعد ذلك أن بنى الناس فُلكاً آخر، فأصبح هنالك فُلكان أحدهما فُلْك مزيف

قدر له أن يتحطم ويبتلعه البحر»، وكتب ويليامس: «إنه بالنسبة لبرنارد كان أناكلت هو يهوذا الذي خان سيده، وكان هو يهوذا لأنه من أصل يهودي»، وبعد وفاة أناكلت كتب برنارد وهو لا يخفي شماتته وفرحته إلى بطرس المبجل: «ها قد مضى وانقضى فصل الشتاء، وقد توقفت الأمطار وظهرت الأزهار في بلدنا، إن ذلك الرجل الشرير أعني الرجل الذي بدأ في تنفيذ خطايا إسرائيل، هاهو قد طواه الثرى، ومات حتف أنفه، لقد هدأت عاصفة الأسد (أي بطرس ليونيس)، ولقد انتهى أمر الشر وأصبحت الكنيسة في سلام وأمان»، والحقيقة أن هذا الفرح الذي أظهره برنارد لموت البابا لا يليق به كرجل ديني ولاهوتي مسيحي، ولكن كراهية برنارد المؤججة لعدوه لا تحتاج لتسويغ لاهوتي.

إن أعنف ملاحظة ضد أناكلت وأصله اليهودي نجدها قد وردت في رسالة كتبها برنارد إلى الملك لوثر، وذلك عندما توج روجر ملكاً على صقلية، وظهر لوثر في روما على رأس جيش صغير، وهنا طلب برنارد الراهب عملاً حربياً أكثر جدوى وتأثيراً منه ضد روجر، وتكلم عن أناكلت بلهجة موجهة ضد اليهود، وهو يشير إلى حادثة تتويج لوثر في روما: «لقد وصلت إلى ذروة الجلال والنبل والسمو الإمبراطوري، ولقد حصلت على هذا السمو دون استعمال أية قوة مادية دنيوية، وهذا ما يُظهر رجاحة عقلك وعظيم إيمانك، ولكن ما دام أن الأرض قد ارتجفت أمام جيش صغير كجيشك، فكم هو الفزع الذي نتوقع أن يصيب أفئدة أعدائك، لو أنك قصدت ضربهم بيد من حديد، ولكني لا أود أن أثير الفتنة إلاّ أنني على يقين أن من واجب كل مدافع ومؤيد للكنيسة أن يَرد، ويتفادى نقمة أولئك المنقسمين الذين يهاجمون الكنيسة، وكما أنها لإهانة كبرى للمسيح أن يعمد واحد من بذور وجراثيم اليهود، إلى اغتصاب عرش بطرس الرسول، كذلك لاشك أن رجلاً يجعل نفسه ملكاً لصقلية سيكون مُلحقاً الأذى نفسه بالإمبراطور»، وعندما عدل برنارد عن عزلته وإقامته في دير كليرفو وبدأ بالانفتاح والتجوال، قضى ثماني سنوات طويلة دون انقطاع متجولاً بين فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا في خدمة حملة صليبية شخصية ضد أناكلت اليهودي، الذي اغتصب عرش بطرس الرسول، الذي دنست أسرته

اليهودية الكنيسة، تلك الأسرة التي يخدم أفرادها أغراض أبيلارد الهرطقية، لتعزيز تمجيد التعاليم الشيطانية، تحت سمع الحبر الأعظم وبصره.

وبدأت الأحداث الدرامية تتعاقب بسرعة، فقد اجتمع الملك الفرنسي مع الاكليروس في إيتامبي، وهي مدينة تقع بين باريس وأورليانس، حيث ظهر برنارد لأول مرة إلى جانب إنوسنت الذي عده برنارد البابا الوحيد الشرعي، ولم يحاول أحد أن يشكك في شرعية الانتخاب، وقد تُلي في الاجتماع تقرير عدّ الأشخاص الذين انتخبوا إنوسنت أرجح عقلاً، وأنضج تفكيراً من أولئك الذين انتخبوا أناكلت ومع أن هذا العمل يعد حيلة أو ذريعة أكثر منه تقويماً، نجد أن برنارد لا يوافق على هذا العمل فحسب، بل بدأ بالإدعاء أن ناخبي إنوسنت كانوا أكثر عدداً، ويشكلون أغلبية ساحقة، ولكن لم يكن هذا صحيحاً، إنما لم يناقضه أحد في هذا القول، فقد قررت فرنسا نهائياً أن تكون ضد أناكلت، وهكذا فضل كل أولئك الذين يشكون في صحة وعدالة هذا القرار أن يلتزموا جانب الصمت، وأصبح برنارد صديق إنوسنت الحميم الملازم له، الذي لا يكل ولا يمل في العمل لأجله ولمصلحته، وقد ذهبا معاً إلى دير كليرمونت حيث أعلن أول نداء لإيقاد نار الحملات الصليبية، وحيث عقد مجمع كنسي في شهر تشرين الثاني، وبناء على وصايا برنارد ونفوذه، تقرر منع رجال الاكليروس من دراسة القانون والطب، وكان هذا القرار في جوهره نكاية بأبيلارد وموجهاً ضده، كما كانت قرارات المجمع موجهة ضد أناكلت تلميذ أبيلارد المخلص.

وبعدها دعا لوثر الملك الألماني إلى اجتماع عقد في ليبج في ربيع عام 1131م، حاول فيه لوثر إلغاء مقررات اتفاقية ورمس، على أن يعترف هو بإنوسنت، ولكن دير كليرفو لم يستسغ هذه المحاولة، ولم يوافق عليها، وأخيراً خضع لوثر وسحب اقتراحه، وهذا ما حدث في إنكلترا حيث كان لأناكلت بعض النفوذ والتأثير، منذ كان مندوباً بابوياً هناك، ولهذا حدث بعض التردد في الاعتراف بإنوسنت، ولكن أخيراً تبدد هذا التردد وانقشع الوضع وخسر أناكلت، وهكذا أصبح هذا منعزلاً، ولقد كان أناكلت يفهم ويدرك ذلك قبل أن تعقد كل هذه الاجتماعات، ومع ذلك فقد ظل مركزه في روما، وفي إيطاليا قوياً كما كان.

بدأ أناكلت يبحث حوله ليجد حليفاً عسكرياً وسياسياً بعد أن تخلت ألمانيا وفرنسا عنه، وأخيراً وجد ضالته المنشودة في روجر النورماندي دوق صقلية، ففي عام 1130م وافق أناكلت على تنصيب روجر ملكاً على صقلية، وفي عشية عيد الميلاد من السنة نفسها حصلت حفلة التتويج المهيبة بحضور ممثل عن البابا، ولم يحضر أناكلت حفلة التتويج شخصياً، بل حضرها عدة من إخوته من آل بيرليوني (وقد قيل أن روجر تزوج من أخت أناكلت، ولكن ليس هنالك أية وثيقة رسمية تثبت هذا القول)، وقد كانت السنوات العشر التالية حروباً بين روجر وقوات لوثر ولويس، يدعمها أولئك الإيطاليون الذين كانوا يخشون تسلط النورمان، وقد خسر روجر بعض المعارك ولكنه أثبت مقدرته في النهاية فانتصر، واعترف به حتى إنوسنت ملكاً لصقلية وقسم كبير من جنوب إيطاليا، وقد أثبت أنه واحد من حكام أوروبا الأقوياء، ومؤسس مملكة صقلية التي أصبحت أعظم قوة بحرية في البحر الأبيض المتوسط.

إنه من نافلة القول أن نذكر أن البابا إنوسنت استطاع أن يصل إلى روما لحضور حفلة تتويج الملك لوثر المرتقبة، تحيط به هالة من الاحتفالات لا تخلو من التقدير والاحترام، ولم يكن حضور الملك لوثر على رأس جيش أقل أهمية، فلقد أصبح أناكلت البابا الوحيد في روما على الرغم من أنه قد حُرم مرتين، وعدّ بابا غير شرعي، خسر نفوذه وسلطته في معظم أقطار أوروبا الغربية المسيحية، فقد كان يرقب عن كثب الغزوات العسكرية وهو قابع في معاقل أسرته القديمة في سانت أنجيلو ومسرح مارسيلوس، ولكن لم تكن تهمه سلامته الشخصية قدر تأكده من إخلاص روما وشعبها ورجال الدين فيها، فقد كان يحكم ذلك الجزء من العالم المسيحي الذي اعترف به أعني روما، وإيطاليا والكنائس الشرقية.

وفي شهر كانون الأول عام 1137م توفي الملك لوثر في كوخ صغير في جبال الألب التيرولية، وهنا تولى روجر الثاني الدور الذي كان لوثر قد رفض القيام به، وهو البت في قضية الانقسام المؤسس على الوثائق والمجادلات القانونية، فقد قابل برنارد في سالرنو،

وأصغى ملياً لمَا أورده كلا الطرفين، ولكنه لم يتخذ قراراً معيناً، وفي 28 كانون الثاني عام 1138م توفي أناكلت، ولم تتوفر لدينا أية معلومات أو وثائق تذكر الظروف التي أحاطت بموته، فقد حدث في زمنه ما فيه الكفاية من الحزن والخيبة وانكسار القلوب في تلك الأعوام الثمانية التي دام بها حكمه، كآخر بابا من الغيتو اليهودي تلك الأعوام التي تقصم ظهر أقوى الأقوياء.

هذا وقد توفي أيضاً بطرس بيرليوني وهو حفيد حفيد باروخ ذلك المرابي الذي اتخذ اسم بندكتوس كريستانوس عام 1030م، وكان بطرس هذا هو الأمل الحي لتلك الأسرة الأرستقراطية المالية، ولم نسمع أي خبر عن جنازته فقد قررت العائلة دفنه في كنيسة سانتا ماريا في تراستفيري، تلك الكنيسة التي شهدت تحول أجداده إلى الديانة المسيحية، والتي خدم بها بطرس نفسه كرئيس للشمامسة، وهنالك من المفترض أن يكونوا قد نصبوا له شاهداً على قبره يحمل اسم أناكلت الثاني الحبر الأعظم للكنيسة الكاثوليكية من عام 1130 – 1138م، وسرعان ما دخل إنوسنت الثاني روما بعد وفاة أناكلت بصفته البابا الوحيد، وقد قدم له أهالي روما بما فيهم إخوة أناكلت فروض الطاعة، وعندها أصدر أمراً بهدم كنيسة سانتا ماريا في تراستفيري حيث كان قد دُفن عدوه أناكلت وأن تشاد كنيسة جديدة في مكانها في الغيتو القديم في روما في ساحة القديس فرانسكوس وهكذا اختفى قبر أناكلت مع اختفاء الكنيسة القديمة، وحيث دُفن أناكلت تجد الآن قبر إنوسنت الثاني.

وفي أثناء حكم أناكلت بني كنيس جديد في الغيتو في ساحة ديلا اتليتا حيث يمكن أن يرى في هذه الأيام.

فهل من الممكن يا ترى أن نجد اليهود أنفسهم الذين حيوه بحماس يوم تتويجه في قصر كرماتيوس ينشدون له أناشيد الصلاة القديمة وهي «إمليل رخاميم Elmale Rachamim» تلك الصلاة اليهودية المختصة بالأموات.